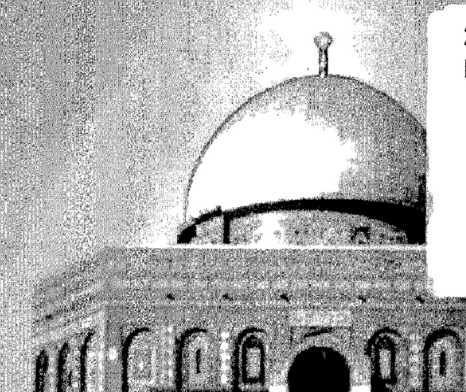
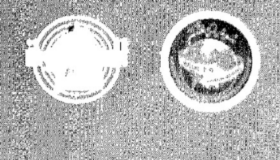
فجر المسلم المنتظر

أفكار ومشاعر بين يدي النورسي

أديب إبراهيم الدباغ






فجر المسلم المنتظر

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ــ ٢٠٠٠



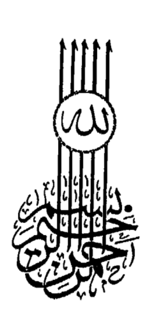
دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة
مدينة الهدى ــ حدائق حلوان ــ القاهرة
ت: ٣٦٩٠٠٧١

شركة سوزلر للنشر ـ القاهرة
١٠ش يوسف عباس ـ مدينة التوفيق ـ مدينة نصر
ت: ٢٦٣٦٦٨٤(٢٠٢)٠٠

فجر المسلم المنتظر

أفكار ومشاعر بين يدي النورسي

أديب إبراهيم الدباغ



اليد الشريفة

«اكتبوها بماء الذهب..
رصّعوا كلماتها بالماس..
واحتفظوا بها في شغاف القلب..
فهي بهذا جدّ جديرة»
النورسي..

في كفِّ محمد ﷺ خشع الحصى وسبّح..
ومن كفه سالت ينابيع الرحمة..
وأزهرت رياض المحبة...

* * *

وَهَوَانُ التراب عَزَّ في كفه...
وصَغَارُ الطين امتلأ شرفاً...
وصار ضعفُه قوّةً...
كقوة جيش عظيم...

* * *

والحصيات الباردات حين لامست كَفَّهُ...
استعرت لهباً...

تحولت ناراً تلفح وجوه الأعداء...
ومعولاً تحطم رؤوسهم...
وظلاماً يغشى عيونهم...
ورياحاً هوجاً تَفْري عظامهم...
وتفرق جمعهم...
وتبدد شملهم...

* * *

لا تعجبوا... فيد الله فوق يده ...
وقدرة الله تتفجر حنقاً من بين أنامله...
«وما رميت إذْ رميت ولكنّ الله رمى».

* * *

يا حزن محمد ويا أسى روحه...
كم هو خصباً هذا الحزن...
وكم هو فاعلاً هذا الأسى...
حين يكذّبه الناس تصدّقه الأكوان...
وحين يصمّون أذانهم عنه...
تصيخ إليه الأكوان...

* * *

وعندما يشير للناس أن هلموا إليّ فلا يستجيبون...
يومئ للقمر فينشطر شطرين...

وينشق شقين. . .

في لهفة وامق. . .

وطواعية مشتاق. . .

فيسجل القرآن «وانشق القمر» سلوةً وعزاء. . .

* * *

من أصابع كفّه يتفجر الماء السلسبيل. . .

ومن بين أنامله يدْفُقُ شهدُ الكوثر. . .

ويتساكب معين الحياة. . .

أيها العطشى. . . هلموا اشربوا. . .

أيها الظامئون أقبلوا. . .

يا سرية الجهاد هيا الرِيّ والسُقيا. . .

انهلوا وعِلّوا من كف محمد المبسوطة لكل الظامئين. . .

* * *

يا يد محمد. . . أيتها اليد الحانية الآسية. . .

يا بلسماً لكل الجراح. . .

يا شفاءً لكل الأوجاع. . .

يا مسيل البركات. . .

ومجمع المعجزات. . .

ومصبّ قدرة الله. . .

وآية خوارقه. . .

* * *

كفّك المباركة زاوية ذكر مشرعة الأبواب لكل الصحاب
والأحباب...
الملائكة تحفّها...
والرحمة تغشاها...
مَن قاربها غلبه الشوق فسبّح...
مَنْ لامسها فاضَ وجدهُ فسبّح...
مَنْ دلف إليها واستقرّ بها هزّه الحنين فسبّح...
كل شيء عانقَ الكفّ سبّح...
حتى الحصى سبّح...

* * *

والكف المباركة نفسها حين يستفزها الأعداء... تغدو على صغرها
ترسانة سلاح...
سرعان ما تتطاير منها سهام الغضب الإلهي لتصيب مقاتل
الأعداء...
وحتى ذرات التراب
وفتات الحصى...
تتحول سهاماً خارقةً تدمي القلوب وتخرم الأرواح...

* * *

واليد نفسها تغدو رحمةً في مواطن الرحمة...

تصبح بلسماً وشفاءً للمرضى والجرحى. . .
وينبوع ترياق. . .
تمسح الأدواء. . .
وتأتي بالشفاء. . .

* * *

وحين تنهض تلك اليد للمهام الجسام. . .
تحفها عظمة الجلال الإلهي. . .
وتواكبها هيبة الربوبية. . .
تشير إلى القمر فينشق طائعاً. . .
وينشطر شطرين. . .
ويتدلى حتى يصبح قابَ قوسين. . .

* * *

تلك هي يد محمد ﷺ . . .
موضع عين الله. . .
وساحة معجزاته. . .
وسماء أسنائه. . .

* * *

أية حظوة يتمتع بها لدى الخالق العظيم. . .
وأي صدق هو صدقه. . .
وأية دعوة ـ ترقى على الشبهات ـ هي دعوته. . .

* * *

طوبى لمنْ لامَسَتْ يدُهُ يدَ محمد...
وهنيئاً لمن شَرُفَ بمصافحة هذه اليد المباركة...
ويا سعادة من عانقت أكفهم كفّ محمد...
ويا فرحة مَنْ التصقَتْ راحته براحة محمد...
فبايعه على السمع والطاعة...
في المنشط والمكره...

* * *

أديب إبراهيم الدباغ
استلهاماً من «اليد الشريفة»
في رسالة المعجزات الأحمدية
للأستاذ النورسي في مجموعة «المكتوبات»

فجر المسلم المنتظر

في الحديث الشريف: «إنّ بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» أو كما قال ﷺ [1].

وقد أخذ «النورسي» ـ رحمه الله ـ المعنى الإشاري لهذا الحديث، وحذر طلبته من أن تختلط عليهم الأمور فلا يعودون قادرين على التمييز بين فجرهم الكاذب وفجرهم الصادق [2]. فأفكار هذا البحث تدور حول المعنى الإشاري الذي فهمه «النورسي» من الحديث الشريف.

(١)

في خيال الأمة وفي عمق ذاكرتها التاريخية يقوم مثال عظيم للمسلم الحق كما ينبغي أن يكون، وكما يُشخّصه القرآن الكريم، وترسم ملامحه وسماته السنة النبوية المطهرة.

وبين زمان وزمان يبرق هذا المسلم المثال في سماء الأمة مضيئاً آفاقها، ومنيراً روحها ووجدانها، ومايكاد ضوؤهُ يتحسّس مواقع الظلام في جوانب حياتها، حتى تعصف به رياح الشر وتدفع به بعيداً عن حياتها وواقعها المعاش.

ولأن قوة روحية هائلة ينطوي عليها هذا المسلم المثال، ولأن

أفكاراً نهضويّة وحضارية تسكن عقله، وتَعْمُر وجدانه، لذا فقد بذلتْ جهود مضنية للحيلولة بينه وبين العودة الأبدية إلى حاضر الأمة من جديد، وعَمِدَ إلى قطع الجسور والمعابر، ووضع العوائق والحواجز في طريق عودته المنتظرة، ونُفِثَ في رُوع الأمة بأن مثال المسلم الحق الذي عرفه ماضيها وسعد به تاريخها نموذج مضى وانقضى ولايمكن أن يتكرر أو يعود.

(٢)

غير أن استدعاء هذا المسلم المثال من ذاكرة الأمة التاريخية ظلّ طوال هذا القرن هاجس المعنيين بشؤون عقلها، وشؤون إيمانها وإسلامها من العلماء والمفكرين. فما فتئوا يستدعونه بأفكارهم، ويهتفون به من خلال أقلامهم، ويحضرونه للنهوض من بين طوايا الزمن العتيق ليصهر بلهب روحه جسد التاريخ الذي يسكنه، ويتحرر من قبضته، ويعود طاقة حياة في حاضر الأمة. يمدُّ شرايين عقيدتها بالدم الذي كاد ينضب فيها لتعود تحيا من جديد بكل أعماقها الإيمانية. وأبعادها الإسلامية.

(٣)

وقد اختلفت وجهات النظر حول الأسباب التي تحول بين المسلم المثال وبين أن يكون له حضور دائم في واقع الأمة، وكذلك اختلفت الأفكار في الأسلوب الذي ينبغي سلوكه للانتقال به من ذلك الوجود الظلي في تاريخ الأمة ووجدانها إلى وجود حقيقي حسيّ ملموس

يُشاهَدُ عياناً بلحمه ودمه في واقعها المعاش.

ونشأت تبعاً لذلك مدارس فكرية متشعبة الاتجاهات، ومختلفة الأساليب في استدعاء هذا المسلم المنتظر، فمنها مايرى «كجمال الدين الأفغاني ومدرسته١٨٣٨ ـ ١٨٩٨م» أنّ المسلم المثال لا يولد إلا تحت ظلال السيوف ومن خلال الثورة والعنف، بينما يرى «الشيخ محمد عبده ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م» رفيقه في الجهاد، أن المسلم المثال يصنعه الفكر وتبنيه الثقافة والعلم، وآخرون يرون أن التربية الإيمانية، والتهذيب الخلقي هو السبيل إلى مجيء المسلم المنتظر، وآخرون يرون في هذه المدارس كلها شيئاً كثيراً أو قليلاً من الحق، إلاّ أنه ليس هو كل الحق الذي لاحقّ قبله، ولاحق بعده، وربما يولد المسلم المنتظر من أحشاء هذه المدرسة أو تلك، ولكنه حين يولد ينمو بسرعة هائلة: وتمتدّ ذاته وتتسع إلى حدّ الانفلات من محدوديات هذه المدارس جميعاً، والارتفاع فوقها، لأن الإسلام نفسه أوسع وأعظم من أن تحتويه مدرسة فكرية واحدة، أو تستوعبه عشرات المدارس بل مئاتها.

(٤)

والمسلم المنتظر وإنْ كان قد أظلّ زمانه، واقتربت ساعته، وتراءت إرهاصات قدومه، إلاّ أنه لم يولد بعدُ، لأن فجر مولده الصادق مازال يشقّ طريقه بصعوبة بالغة في شعاب ليل مدلهم، وما يُظنُّ أنه فجره وصبحه فهو وهم ينبغي ألاّ يقع فيه ذوو الحصافة والحكمة من العلماء.

فصياح الديكة في مَوْهِنٍ من الليل لايعني أنّ فجر الصحوة المنتظر، فجر «الله اكبر» قد أضاء الآفاق ومسح الليل من فوق الأرض، فما بين الفجر الكاذب والفجر الصادق أمَدٌ يطول أو يقصر. إلاّ أنه ينبغي أنْ يُحْسَب حسابه، وألاّ يُتعَجّل قدومه.

و«النورسي» رحمه الله كان قد انتبه إلى هذا وحذّر طلابه من الوقوع في هذا الوهم الفاجع الذي يجرّ على المسلمين المزيد من الكوارث والآلام.

فالطبيب يرتكب خطأً قاتلاً حين يوحي إلى مريضه بالشفاء بينما ما يزال المرض يفتك به بصمت وخفاء، وعلماء الإسلام المؤتمنون على صحة المسلمين الإيمانية يرتكبون الخطأ القاتل نفسه حين يوحون إلى أتباعهم بأنهم يحيون تفجرهم الإيماني الصادق، بينما ما تزال بقايا من عتمة الليل تغمر عيونهم وتمنعهم من القدرة على دقة النظر ووضوح الرؤية، فيقعون في مطبّات فكرية وعقيديّة وربما سلوكية تجرهم إلى مزيد من اليأس والإحباط.

(٥)

فنحن ـ في الحقيقة ـ جيل الغبش. نصفنا في النور ونصفنا الآخر في الظلام. نتلمس طريقنا في بقايا عتمة مضت ولوامع فجر لمّا يجئ بعدُ، فنخطئ مرة ونصيب أخرى، نتأرجح بين الحكمة والجهالة، ونتردد بين التعقل والحماقة، نعقل مرةً ونتوكل، ونجنح للمغامرة بكل شيء مرّات أُخر. يتقاسمنا الموت والحياة، وكالنار يأكل بعضنا

بعضاً، فنحن المطرقة والسندان، ونحن النار والهشيم، ونحن العاصفة الهوجاء والريح الرخاء، ونحن التفجع الباكي الوجيع، والفرح الإلهي النبيل ، ونحن بعد هذا وذاك النفق الخدلر المليء بالآلام الذي لابد من أن يجتاره «المسلم المنتظر» في طريق عودته إلى حاضر الأمة وواقعها من جديد ، متجاوزاً عمّا فينا من النقائض والأضداد ، ومرتفعاً فوق أخطائنا ونقائصنا ، ومتعالياً فوق صغارنا وضعفنا.

فرسالتنا لابل هدفنا القدري المرسوم ـ نحن أبناء هذا الجيل ـ هو التمهيد لقدوم مسلمنا المنتظر... في طريقه نفرش مُزَعَ أرواحنا، ونثار قلوبنا، ومن أجله نتحمل آلام الاغتراب عن عصرنا، وفي سبيل مقدمه نصبر على مايُصَبُّ في حلوقنا من مرارات.

اختارنا القدر ـ على مافينا من عيوب ـ مَعبَراً يعبر من فوقنا حين تدق ساعته، ويأزف فجر قدومه... فنحن الفداء لمقدمه، وعلينا أن نتوارى بصغارنا أمام عظمته.. ولا بأس من أن ننسحق حتى العظم تحت قدميه الواثقتين، وسوف نلقي بكل ماكتبناه وقلناه ووعظناه في قرن من الزمن في قبضة يده، ليغربله بغربال عقله الحصيف، وينقيه مما خالطه من شوائب.

(٦)

لقد مات فينا ـ للأسف الشديد ـ أرهف ما للفكر الإيماني من ذكاء، وأعمق ماله من أغوار ، وامتصّ الزمن العقيم ماء وجودنا

حتى الجفاف. فلم نعد قادرين على ممارسة التفكير الحر فيما يعرض لنا من قضايا الإيمان. واختلطت بين أيدينا أوراق الفرق الإسلامية، ومذاهبها الفكرية، فانثالت علينا الأمور، واختلط حابلها بنابلها، وصحيحها بسقيمها، ورغم كل ما حشدناه من شتيت الأفكار، ومن مختلف التجارب الإيمانية، عبرة من الزمن فإننا مازلنا نفتقر إلى نظرية في المعرفة يمكن أن نرجع إليها في ضبط أفكارنا وتوحيد أذهاننا. أو امتلاك ملكة نقدية شجاعة لا تهاب أن تعطي رأيها صريحاً بأخطاء أيّ منّا مهما علا صوته، وارتفع شأنه.

ورغم هذه السلبيات الخطيرة التي تغشى فكرنا الإيماني، وتجعلنا عاجزين عن تلمس طريقنا في شعاب هذا العالم ولو بقليل من المزالق والأخطاء، فإن البعض منا ممن طال عليهم ليل الانتظار يقعون في الخطأ المؤلم بحسبانهم بعضاً من لوامع الأضواء المرتعشة فوق صفحة الليل بين حين وآخر، هو ماينتظرونه من خيوط الفجر الإسلامي المرتقب، وفي غمرة انتشائهم بهذا الوهم يتصرفون وكأن شمس الإسلام باتت وشيكة البزوغ، فيسرعون الى إطفاء ماكانوا أشعلوه من قناديل بزيت أرواحهم ترقباً لشعلة أكبر وأعم هي شعلة الشمس الوشيكة، وربما استخفهم الفرح فاعتلوا المنائر وأذنوا للناس ولّما يدخل وقت الفجر بعدُ، وهذا الذي حذر منه «النورسي» رحمه الله تعالى، لأنه خطأ تتبعه سلسلة من الأخطاء المفجعة التي تورث الآلام والحسرات.

وحين يَقدُم «المسلم المنتظر» ويبزغ فجر مولده الصادق فإنه سيمر ببلسم روحه فوق جراحات جيل العبور وآلامه. إلا أنه لن يهدر لحظة واحدة من عمره النفيس في النواح على هموم هذا الجيل الجزئية والفرعية ؛ لأنه يدرك بنفاذ بصيرته ما يتهدد المسلمين في وحدتهم الروحية الكبرى، وما يراد لها من التفكك والتشرنق والتمذهب، مما يجعله يكرس جهوده بأسرها من أجل الدفاع عن هذه الوحدة التي فيها حياة المسلمين ومجدهم وقوتهم.

(٧)

وفي زخم اكتساحه الباسل المقدام للحواجز والسدود بينه وبيننا فإنه سيدفع بموتى النفوس منّا إلى ذلك الفناء البشري الذي يحمله السيل بعيداً عن ذرى التاريخ الذي يريدنا أن نحيا متربصين فوقها.

من فمه تنطلق كلمة الحق القرآني قوية مجلجلة، تصك أسماع الباطل، وتهزّ أركانه وعروشه، وفي يده حصاد قرن من الزمن من معاناة الإيمان وتجاربه المضنية مع انحرافات العصر وتأبيه على الصلاح والاستقامة. أما روحه فهو بالغ القوة هائلها بما يُصبُّ فيه من دفق الإيمان الموار بالحياة ، وأما عقله فهو وهيج فكري يتفجر بشرارات الأفكار التي تحيل بقايا العتمة في عقولنا إلى نهار ضحيان، ومن مهماته إيقاظ الشعور بالجانب الإلهي فينا، وتنشيط ما ذوى من آمال في استئناف حقبة إيمانية جديدة تزخر بمعطيات الإيمان من الحق والعدل والخير والجمال.

وهو حين يشقّ طريقه إلينا بسيف فجره الإيماني الصادق، فإن كثيراً من سيوف الظلام ستتهاوى يائسة متعبة ، وستجثو على أعتابه منخلعة من ظلام الفكر ومادية القلب إلى ينابيع فجره. . . ولكن حين يسقط سيف إيمانه ـ لأي سبب كان ـ من شاهق روحه ليقع في قبضة يده في محاولة لمخاطبة الناس بلسانه القاطع الحادّ فإنه يفقد بذلك بلاغته الروحية. وينسى لغته السماوية التي تنفذ ـ دون استئذان ـ إلى قلوب الناس وعقولهم، فيخطئ الناس الفهم عنه، وهم إذا فهموا فلا يفهمون إلا بعض الحق الذي يريد أن يقوله، بينما يظلّ الحق كل الحق غائباً عنهم، غير مفهوم لديهم. وبالتالي فإن السيف يمكن أن يحملهم على الانصياع والاستسلام. ولكنه يصعب أن يحملهم على المحبة ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ (الحجرات: ١٤).

(٨)

فالروح القوية للمسلم المنتظر تصهر بلهبها سيف كلّ مَن يدعوه للمبارزة. وعقله المؤمن الكبير يغدو في ساعة الحسم أقوى من أي عقل ينازله. . . ولعمق صلته بالقرآن فإن إحساسه بكونية وجوده يمنحه قوة معنوية خارقة قادرة على الإتيان بخوارق الفعال. . . وفي المكان الأعلى من نفسه يصبّ دفق كوني يجعله يحسّ بالزمن ـ ماضيه وحاضره ومستقبله ـ وكأنه حاضر مستمر في حضوره اللانهائي، وأن الأبدية قد آوت إلى ذاته، فهو يحياها ويطعم مذاقها قبل أن يمضي

إليها في خاتمة عمره.

أما نفسه التقية الصافية فهي مصبّ أنوار أسماء الله الحسنى التي تنتظم العالم بأسره، وتقوم بإمداده بالحياة والوجود.

فمَن كان هذا شأنه وتلك صفاته فكيف لا يرثي لمن يسعى لإيذائه؟ أو الوقوف بالضد من رسالته؟ وأيّ سيف فرعوني يمكن أن يحول بين «عصا موسى»[٣] وبين فعلها الإعجازي والإيماني في جموع الناس من حولها؟

وهو حين يقدُم فإن عالما إيمانياً رفيع الذرى سينهض من جديد من خلال رماد الأرواح المحترقة، والقلوب المنسحقة، وإن المبادئ الكبرى التي دُفعت خارج الزمن لكي تُنسى وتموت ستجد في أنفاس روحه العظيم ما يبعث فيها حسّها الزمني، ويعينها على النهوض لتلتقي حياتها، وتعانق وجودها، في لُبّ حياته، وجوهر وجوده.

أما المعرفة التي سيعتمدها في تشكيل عقله الإيماني فإنها تستحيل إلى معرفة وحياة معاً، لأن الإسلام لايعرف الانفصام بين المعرفة والحياة، ولا يعرف الصراع بين الكتاب ـ القرآن الكريم ـ من جهة، والذات القارئة من جهة أخرى. ولأن الإيمان الصادق يرفع الذات أو «الأنا» إلى مرتبة الوجود الاندفاعي بين الذي نقرأه ونعرفه، والذي نحياه ونعيشه.

(٩)

لذا فهو لا يعرف التوقف عند مرتقى معين من المرتقبات المعرفية، بل هو علو مستمر، يرتقي نفسَه ويعلو عليها، يدفعه إلى ذلك حنين

وثاب، وعطش لا يرتوي إلـى الحـياة المتدثـرة بأسـرار الخلق والإيجاد. . . ففي الحياة ـ هذا البحر الإلهي المتدفق دون توقف ـ يلتقي المؤمن أعمق أعماقه، وأعلى عليينه، ويجد في شعاب أسرارها مصرفاً لنوازعه الحبيسة العطشى إلى الحقيقة التي تغلي بها روحه، ويفور بها عقله، فكلما ازداد فهمنا للحياة ازدادت معرفتنا بالله تعالى، وازداد قربنا منه وحبنا له، وتقديسنا لعظمته وقدرته، لأنها ـ أي الحياة ـ مرآة تعكس آثار أسماء الله الحسنى الجلالية والجمالية وفاعليتها في الكون والكائنات، كما يشير إلى ذلك «النورسي» في رسالته القيمة «الاسم الأعظم».

فلمحة من لمحات معرفته جلّ جلاله، وومضة من ومضات تجليه علينا من خلال هذه المعرفة، تنسينا كل ما عانيناه من آلام البعد والجفاء في سنوات العقم المعرفي والجدب الإيماني .

فالمسلم المنتظر يجيء ـ حين يجيء ـ وفي الدراية الحياتية، يغالب بها ويغلب أية طاقة موت يمكن أن يواجَه بها. . فهو ليس مأساويا يصنع المأساة ثم يجلس على أنقاضها ويكثر من التفجع والبكاء والعويل. بل يزرع الفرح والحياة أينما ـ وفي أي مكان ألقى عصا ترحاله. لأن الحياة هي الأصل، والمـوت هـو الاستثنـاء، وكما لا يريد لوجوده الفناء فإنه لا يريد أن يفني وجود الآخرين، لأن حق الحياة مكفول لجميع البشر من واهب الحياة سبحانه وتعالى كما يقول «النورسي».

ورغم أن الموت هو جزء من الحياة وليس مضاداً لها لأنه الواسطة بين المتناهي واللامتناهي، والمحدود والمطلق، والزائل والأبدي، إلا أنه ليس من حقنا أن ندفع إليه الآخرين دفعاً، أو نجرّع كأسه للآخرين عنوةً مهما كانت الأسباب والمعاذير، وإن من الخطورة بمكان على دعاة الإيمان أن يشير الناس إلى سيف الإيمان قائلين: انظروا إنه خالٍ من أي نُبلٍ روحي..!

ولو أصغينا جيداً لما يقوله «المسلم المنتظر» من بين كلمات رسائل النور لسمعناه يقول بلسان الحال: ليس الدّم ما نريد، بل نريد القلب المعمور بهذا الدم.

وليس للموت جئنا بل جئنا للحياة، ولا نريد أن نقتنص أرواح الناس، بل نريد لهم أن يسلموا إلينا أرواحهم وعقولهم طواعية وعن طيب نفسٍ منهم لنرتفع بها إلى أعتاب الرضى الإلهي ، والقبول الرحماني، وإن كنا نسعى لتعميق نزوعهم الفطري نحو اللانهائي الأخروي، فليس ذلك من أجل الفناء فيه، بل من أجل الظفر به.

(١٠)

فنحن أمة كتاب أولاً وآخراً، لا نبغي عنه حولاً، ولا نبتغي القوة في غيره، ولا النصر في سواه، لن نستبدل به سيوف العالم كلها.. أول كلمة فيه لامست قلب محمد ﷺ هي كلمة «اقرأ»... فبالقراءة نكوّنُ العقول الأرقى التي تفهمنا، ونصنعُ النفوس الأرفع التي تطال نفوسنا،ونهذب القلوب الأرهف التي تفهم عنّا وتدرك مرامينا،

وبنوره نواجه عواصف العماء المطلق العنان الذي يريد العصف بنا، وإطفاء شعلة إرادتنا في تشكيل مستقبلنا وفق مايريده كتابنا. وبالقراءة نفتح أجفان السيوف لتبصر كم في ضعفنا الظاهر من قوة تتواضع قوة السيوف إزاءها، وكم في مواتنا البادي من حياة تُخجل عنفوان كل حياة، وكم يرقد في أشلاء نفوسنا المبعثرة هنا وهناك من طرق الإيمان وشعابه من وحدة مصير متوثب، ووحدة تاريخ ينتظر ساعة قيامه.. فإذا ما انشق فجر المسلم المنتظر، وتفتح في صور القيام انتفضت أرواحنا الهاجعة، وانشدّت إلى أرقى ذرى اليقظة والصحو الإيماني المرهف، وانفتحت عيون عقولنا لتبصر قصور الفهم البشري وتخلفه عن الارتقاء إلى المعاني السامية التي يدعو إليها الإيمان. فندعوه - بالكلمة - ونهتف به - بالكتاب - ليرتقي إليه، ويلامس معانيه، ويتشرب من معينه ما يروي ظمأه ويطفئ غلته.

ولو شئت أن أصف «المسلم المنتظر» وأوجز، وأن أشير إليه وأومض لقلت:

إنه «مكي»[٤] بسَوْرةِ إيمانه، وعمق عقيدته، وفي تحرره من «الصنمية» بجميع أشكالها وأنواعها. وبتأجيج روح الكون في روحه. وبتحرره من ثقله الكتلوي وصيرورته طاقة حية يحركها حنين لايقاوم للاندفاع نحو أعتاب الحضرة الإلهية، وتسليمه كلية وجوده إليه سبحانه وتعالى..

«مدني»[٥] في إرساء هذا البناء الإيماني الشامخ على قواعده

الشرعية، وأسسه العملية في التعامل مع الحياة والمجتمع. .

«بدْري»[٦] في شجاعته وفي توكله على الله ورجائه النصر منه وحده. .

«حديبي»[٧] في حِنْكته ومرونته وقدرته على التعامل مع الآخرين أخذاً وعطاءً من دون المساس بثوابت الإيمان والعقيدة. .

«شوري»[٨] فيما يتخذ من قرار ويقدم عليه من فعل. . .

وهو بعد ذلك الذي قلناه في وصفه يرفض أن يَدْفن نفسه في المحدودية الضيقة. وأن يغلق على ذهنه نوافذ الانفتاح على عوالم الأفكار والثقافات المختلفة، غير أنه يظل متماسك الروح إزاءها، ومتحد الذات في مواجهتها، وهو بما لهُ من حدّة فهم شمولي، ومن نفاذ بصيرة خارقة، قادر على أن يلتقط من أحشاء «الخطأ» شيئاً من الصواب. وأن يتلمس في باطن «الباطل» حبةً من الحق، من حيث أنّ «الحق» هو أصل الخليقة، والصرح الذي يقوم عليه الوجود، وتنبثق عنه الحياة، بينما «الباطل » طارئ على الوجود، ليس له قوة الحق ولا أصالته، ولاعمقه في الكينونة البشرية. . فله ـ أي الحق ـ الهيمنة المطلقة النفاذ في كل شيء ، فكما أن الهواء النقي لايعدمُ مدخلاً ينفذ منه إلى أشد الأجواء عفونة وفساداً، فكذلك «الحق» لايَعدمُ مدخلاً تنفذ منه بعض من جزئياته إلى أغاليط العقل، وأباطيل المذاهب والفرق كما هو مشاهد في الفرق الإسلامية المنحرفة، فإنها لا تخلو من شيء ما من «الحق» مهما كان ضئيلاً، فقد يكون فيها

حبة أو جزئية منه. وهذه الحبة أو الجزئية تعطي لباطل الفرقة أو المذهب صورة ـ ولو شاحبة ـ من صور «الحق» تغري الناس باتباعها. . وقد نبه «النورسي» رحمه الله إلى هذا، قائلاً في مخاطبة كل مَن يطلب الحقيقة ويبحث عنها:

(ياطالب الحقيقة:

إن الشريعة تنظر إلى الماضي وإلى المصيبة غير نظرتها إلى المستقبل وإلى المعصية. .إذ تنظر إلى الماضي وإلى المصائب بنظر القدر الإلهي. فالقول هنا قول الجبرية. .

أما المستقبل والمعاصي فتنظر إليهما بنظر التكليف الإلهي. فالقول هنا قول المعتزلة. . وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة.

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة لها محلها الخاص بها. وينشأ الباطل من تعميمها)[٩].

(١١)

وليس كالمسلم المنتظر إنسان يطلب الحقيقة ويبحث عنها ويعاني من أجل اكتشافها أشد أنواع الحميّات الروحية، والقشعريرات الفكرية، ويكدح كدحاً عظيماً لكي يضعها في الضوء المنظور تحت أبصار الآخرين. فإذا ما التقطها ذهنه اللّماح قدمها للآخرين كأجلى ماتكون الحقيقة ، وكأعمق ما تكون عقلانية . وكأوضح ما تكون نقاءً وصدقاً، فلا يبقى أحد ممن يهمه الإيمان والإسلام إلاّ ويجد صدى ذهنه الجبار في عقله وفكره.

فكينونة المسلم المنتظر لا تعمق وتصلب وتصبح قادرة على إحضار الزمن العظيم المولود من أجله إلاّ بقدر ما يحسن من الفهم ويعالج من التفكير.

حتى أنه ليغدو مع الزمن مركز التوحيد الروحي الذي يبعث إلى العالم كله بأفكاره ورسائله..!

فالحضارة الإيمانية المرتقبة لا تولد إلاّ من خلال جيشانات روحية وفكرية عظمى، وهي ماينتظره العالم منه حين ينشق فجره.

(١٢)

ولابد من الإشارة هنا إلى أن «الفكر» وحدهُ يظلُّ طاقةً معطلةً وباردة ما لم تسنده إرادة قوية تتوقد حيوية، وتستعر توثباً.. فالحياة الإيمانية يمكن أن تنكفئ وتتوقف عن النمو والسعة من دون مافكر يرفدها، ولكنها تصاب بالشلل والكساح وربما الموت من دون ما إرادة تحرك مفاصلها وتدير دواليب حركتها. فالإرادة تبتعث الفعل البطولي داخل النفس، وتفجر الطاقات الإيمانية والإمكانات الفكرية، لا بل هي التي تحرك مسارات التاريخ وتقيم صروح الحضارات.

فإرادة المسلم المنتظر سوف تصارع الإرادات المناوئة لها من أجل أن تلقي بالزمن الخاوي وتطرحه بعيداً خارج حياة المسلمين، ومن أجل أن تشعل فتيل إرادة فهيمة في نفوسهم تستدعي بقوة عالم الإيمان الأرقى والأخصب بإيقاظ ما غفا من أحاسيسه في أعماق خيالهم وذاكرتهم التاريخية.

فكل ما كنّاه ـ خلال هذا القرن ـ من زوغان نظر، وشتات فكر، وتيه هدف. ينبغي ألاّ يوقفنا عن محاولة إنقاذ مايمكن إنقاذه من بين ألسنة هذا الحريق الهائل الذي يجتاحنا ويأكل أرواحنا، بل ينبغي أن يحفز الهمم، ويقوي العزائم من أجل ما نريد أن نكونه في حاضرنا ومستقبلنا.. فنحن مسكونون بقوة خطرة غير منضبطة ولّدتها في نفوسنا مرارات السنين، وإخفاقات قرن كامل من الزمن، فما لم يشرق فينا وعيٌ قرآني يمسك بعنان هذه القوة الخطرة فإنها مرشحة لتدمير ذاتها وتدميرنا معها تدميراً نهائياً.

فنحن اليوم في أمس الحاجة إلى من يرتفع بهمته ويعلو بعبقرية حكمته فوق أصوات الدم الفائر، ونداءات «الأنا» المتشنجة، وأن يقف قبالة سيف الحق ويخاطبه بأعلى صوته قائلاً:

أيها السيف النوراني الطاهر.. نزّه نفسك.. وطهر نصلك.. وعُد إلى غمدك.. وليعد إليك وقارُك ونُبلُكَ.. فليس هذا اليوم يومك.. ولا هذا الفجر فجرك.. ففجرك لّما يبزغ بعدُ.. ومسلمك المنتظر لّما يطلّ بعد.. وكأن «النورسي» رحمه الله كان يتوقع استعجال المسلمين لفجرهم الصادق.. وتورطهم فيما لاينبغي أن يتورطوا فيه من أخطاء فقال معلماً:

«إن التضحية بالأكثرية ليس من سنن الإسلام، فعدالة القرآن الكريم لا تضحي بحياة بريء واحد، ولاتهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل الأكثرية، أو لأجل البشرية قاطبة؛ إذ الآية الكريمة: ﴿ مَن

قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(المائدة: ٣٢)، تضع سرين عظيمين أمام نظر الإنسان:

الأول: العدالة المحضة: ذلك الدستور العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية، مثلما أنهم سواء في نظر القدرة الإلهية، وهذه سنّة دائمة. إلاّ أن الشخص يستطيع ـ بدافع من نفسه ـ أن يضحي بنفسه، من دون أن يُضحى به قطعاً، حتى في سبيل الناس جميعاً، لأن إزهاق حياته وإزالة عصمته، وهدر دمه، شبيه بإزالة عصمة الناس جميعاً وهدر دمائهم جميعاً.

والسر الثاني:

لو قتل مغرور بريئاً دون وَرع ، تحقيقاً لحرصه ، وإشباعاً لنزواته وهوى زغباته، فإنه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري إن استطاع»[١٠].

الهوامش

(١) البخاري [٦٢٢، ٦٢٣، ١٩١٩]، ومسلم [١٠٩٢/٣٦ ـ ٣٨] .

(٢) يقول النورسي في الخطبة الشامية: «إن المستقبل الذي لا حكم فيه إلاّ للعقل والعلم سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان. . . وها قد أخذت الحجب التي كانت تكسف شمس الإسلام تنزاح وتنقشع، وأخذت تلك الموانع بالانكماش والانسحاب، ولقد بدأت تباشير ذلك الفجر منذ خمس وأربعين سنة وها قد بزغ فجرها الصادق سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف أو هو على وشك البزوغ، وحتى إن كان هذا الفجر فجراً كاذباً فسيطلع الفجر الصادق بعد ثلاثين أو أربعين عاماً إن شاء الله».

(٣) «عصا موسى» اسم لإحدى رسائل النور للنورسي.

(٤) إشارة إلى البدايات الأولى للدعوة الإسلامية في مكة المكرمة.

(٥) إشارة إلى ماطرأ على الدعوة الإسلامية من تطور عند انتقالها إلى المدينة المنورة.

(٦) إشارة إلى شجاعة الرسول ﷺ في مواجهة الأعداء على كثرتهم ورجائه النصر منه تعالى وحده في معركة بدر الكبرى.

(٧) إشارة إلى حنكة الرسول ﷺ ودبلوماسيته العالية في إبرامه لصلح الحديبية الذي كان من ثماره فتح مكة بعده بقليل.

(٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

(٩) الكلمات «اللوامع» ٨٥٢.

(١٠) الكلمات «اللوامع» ٨٦٢.

النورسي.. وأسلمة المعرفة

(١)

من بطحاء مكة انبعث الإسلام لينير بمعارفه الإيمانية عقل العالم المسكون بظلام الشرك، والغارق في ضلال الوثنية. وانطلق بقوة يجوس خلال الضمير البشري مخترقاً غلافه المعتم الصفيق، ومحدثاً تغييراً في كامل أفكاره عن الله والكون والإنسان، وكان صدى صوته الكوني يجلجل في أرجاء قلب الإنسان، ويجوب آفاق وجدانه.

وقد هتف بالإنسان ألاّ يعتصر روحه فوق الفانيات الزائلات من أشياء العالم. وألاّ ينثر نثار ذاته في شعاب الدنيا الضيقة المحدودة، ودعاه إلى أن يَلُمَّ ماضاع من نفسه، ويجمع ما انفرط من عِقدِ وجوده، ويوحد ما تفرق من كيانه، وناداه قائلاً:

امضِ - أيها الإنسان الواحد - بكلك وجمعك ووحدتك، وَخُرَّ ساجداً على عتبة الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وعندما حملت رياح التاريخ سحائبنا المثقلة بماء التوحيد إلى شعوب الأرض، أعطينا الإنسان من المعارف الإيمانية ما لم يعطه أحد من قبلنا، فعلمناه كيف يوحد ذاته، وكيف يوحد ربّه، وفتحنا

بصيرته ليرى العالم من حوله كُلاً لايتجزأ ووحدةً واحدةً لاتنفصم. وأنه مصنوع بسرّ « الأحدية » وقائم «بقيومية الفرد الصمد». وحفزنا في أعماق فطرته نازعه إلى الخلود ، وحثثناه على ركوب سفينة التوحيد لتشقَّ به عباب الفناء حتى تنزله سالماً معافى على شواطئ البقاء والخلود.

فقد ناقش القرآن مسألة البقاء، ورسم للإنسان السبل التي توصل إليه، وألمح إلى الآيات الكونية والحياتية، وَنَبَّهَ إلى ظاهرتي الموت والحياة، ووازن بين الوجود والعدم. وخالف بين البقاء والفناء، ومَايَزَ بين الكفر والإيمان. وذكّر بالمآل والمصير؛ هذه المسائل التي تراود أرقى الأذهان ، وتشغل أكبر العقول ، فتفكير الإنسان فيها، وإعمال ذهنه في حلّ لغزها ومعالجة إشكالاتها هو جوهر كُلّ فلسفة وإنْ لم يكن هذا الإنسان فيلسوفا أصلاً، وجوهـر كلّ دين ولو لم يكن المعنيّ بها متديناً أصلاً.

(٢)

فالفلسفة والدين ـ إذن ـ يلتقيان عند نقطة معينة في عقل الإنسان، ثم يفترقان بعد ذلك، فهما سواء فيما يثيرانه من تساؤلات، وهما سواء حين يحفزان العقل للتفكير في لغز العالم المليء بالأسرار والمعمّيات، ولكنهما ليسا سواء فيما يعطيان من إجابات.

فحين تصاب الفلسفة بالعجز ويَقصُرُ باعها عن الإجابة عن تساؤلات الإنسان عن سرّ الوجود، وجدوى الخلق والإيجاد. وعن

معنى الموت والحياة ، يتصدى الدين للإجابة بما يبدّد الإحساس بلا جدوى العالم. أو بعبثية الوجود، وبما يزيل خوف الإنسان من الموت. ويطمئنه بأنه الكائن الوحيد بين الكائنات المرشح للبقاء والخلود.

فالفلسفة دين في أصولها الأولى وإنْ كانت تشتط أحياناً في الابتعاد عن كل دين، والدين هـو الجواب عن تساؤلات مالم تحسن الفلسفة الإجابة عنه.

(٣)

وعندما عرف المسلمون فلاسفة الإغريق ، وعرفوا فلسفاتهم فيما تُرجِمَ من كتبهم إبّان ازدهار الترجمة في العصر العباسي، وصار منهج الفلسفة ومنطقها لعبة المعنيين بشؤون الفكر والدين. نجم في المجتمع طبقة جديدة من المفكرين هي طبقة «المتكلمين» ونشأ علم جديد له أصوله وقواعده وهو «علم الكلام» الذي أُضطرّ أنْ يستعير منطق الفلسفة ويتحدث بلغتها وهو يتصدى للدفاع عن عقيدة الأمة.

وهذا العلم يمكن أن نرى فيه أول محاولة مبكرة في تاريخ الفكر الإسلامي لأسلحة «المنهج الفلسفي» وإلباس العقيدة درعاً إسلامياً ولكنها مُفَلْسَفَةٌ تصدّ أي هجوم يُشَنُّ عليها بالمنطق الفلسفي نفسه.

وقد نهجت الفرق الإسلامية على اختلاف مذاهبها المنهج الكلامي نفسه في صياغة أفكارها، بغض النظر عن الأخطاء التي كانت تبعد بها كثيراً أو قليلاً عن المنهج القرآني الذي اختاره الله تعالى لكلامه

العزيز، ولعلّ «الاعتزال» هو قمة ما كان يمكن أن يصل إليه هذا المنهج الكلامي بما تبلور فيه من ضلالات أقصته عن القبول عند أهل السنة والجماعة.

وقد تابع الفلاسفة المسلمون المسيرة التي بدأها المتكلمون، وذهبوا أبعد مَمّا ذهب أولئك، وما تركه هؤلاء الفلاسفة من آثار - ابتداءً بالكندي في مشرق العالم الإسلامي وانتهاءً بابن رشد المتوفي ٥٩٥هـ في مغربه - يَنِمُّ عن روح مضطربة، وعقل معذّب، وذات مشطرة بين الولاء للدين أو الولاء للفلسفة. الأمر الذي دفع « الغزالي ٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ» إلى حسم هذا التردد لصالح الدين عَبْرَ كتابه النقدي «تهافت الفلاسفة» مبيناً مواطن الخلل في مناهجهم ومنبهاً إلى الثغرات الكثيرة في المنطق الذي يعتمدونه في بناهم الفكرية وفي نظرتهم إلى العالم.

لقد كان «تهافت الفلاسفة» أوجع ضربة تلقتها الفلسفة في ذلك الوقت حيث كان إيذاناً ببداية النهاية للمتفلسفة المسلمين، وكان «إحياء علوم الدين» هو البديل الذي انتهى إليه الفكر الإسلامي بعد جولته المضنية مع المتكلمين والفلاسفة بمنهجه الجديد الذي يصفه النورسي بأنه: «السير مع العقل تحت نظارة القلب، والمضي مع القلب تحت نظارة العقل»،وهو المنهج الذي اختاره لنفسه في «رسائل النور» كما سنرى ذلك في الصفحات الآتية من هذا البحث.

(٤)

لقد بات واضحاً من خلال التجارب الكثيرة التي عرفها الإسلام مع الفرق والمذاهب والفلسفات أنه يلفظ كُلّ ما يُقْحَمُ عليه ويُحْقَنُ به مّما لا يوائم أصوله وقواعده، إذ لا ينسجم مع عقله الجمعي وروحه العام، فمثلما يتعرض الجسم البشري لأشد الآلام والمخاطر حين يحقن بدم لا يوائم فصيلة دمه، وهو يلفظ أي جسم غريب لا يتقبله نسيج خلاياه، هكذا الإسلام فإنه يرفض ويلفظ ما يراد إقحامه عليه من أفكار ومذاهب ومعتقدات غريبة عنه ولاتلتقي مع نظرته إلى الكون والحياة والإنسان.

وهكذا قُدّر لـ«إحياء علوم الدين» ـ الموسوعة الإسلامية الكبيرة ـ أن يحتلّ مكاناً مرموقاً من اهتمام المسلمين في طول العالم الإسلامي وعرضه، فغدا الإقبال عليه شديداً الأمر الذي هيأه لكي يرتقي عرش الفكر قروناً عديدة بعد أن تخلت عنه الفلسفة مرغمةً، فصار مصدر إشعاع وإيحاء وإحياء لعامة الناس وخاصتهم، بينما كانت «الفلسفة» معنية بالقلة القليلة من الخواص، وهكذا انتهت إلى هذه النهاية البائسة وتوارت بعزلتها عن عموم شؤون الأمة الفكرية والإيمانية.

فإذا كان «التوحيد» ـ بما ينطوي عليه من عقلانية، والقرآن بدعوته الملحة للإنسان لكي ينظر ويفكر ويتذكر ويعقل ويستقرئ مايكتنفه ويحيط به من شؤون الحياة والأحياء، ويتأمل فيما تقع عليه عينه من ظواهر كونية وطبيعية وإنسانية ـ استطاع أن ينشئ في المسلم عقلاً

يقظاً سؤولا، وبَصَرًا لمّاحاً، وسمعاً متوفزاً، وبصيرة متفتحة وحساً مرهفاً، فلا غرابة ـ والأمر كذلك ـ أن يكون البديل عن الفلسفة في العالم الإسلامي؛ لأن الفلسفة لا تستطيع أن تفعل للإنسان أكثر مما يفعله له الإسلام.

أما في الغرب المسيحي فإن «التثليث» بلا معقوليته وبمجافاته لكل منطق، لم يكن قادراً على أن يلعب دور البديل عن الفلسفة، بل على العكس من ذلك كان «التثليث» واحداً من أهم العوامل في الاندفاع نحو الفلسفة في محاولة من الغرب لِعَقْلَنَةِ مالم يستطيع «التثليث» أنْ يُعَقْلِنَهُ من شؤون الألوهية والحياة والكون والإنسان.

(٥)

فالعقل المتفلسف السَّؤول ظلّ نشيطاً في الغرب للسبب الذي بيناه آنفاً ولم يتوقف عن ممارساته التنديدية والنقدية للأفكار الدينية المتعلقة بعقيدة التثليث والتي كان وما يزال يرى فيها مالايسيغه عقل أو يقبل به منطق.

وبدأ صوت مخنوق ظلَّ مكبوتاً فترة طويلة من الزمن يعذب أصحاب الفكر ويضغط على عقولهم، فانفجر في خاتمة المطاف ليفصح عن نفسه، وليعلن أصحابه على رؤوس الأشهاد بأنهم وصلوا إلى طريق مسدودة أمام دين تثليثي يمكن أن يقبله العقل ليصبح العوض عن الفلسفة.

وهنا كان لابد من أنْ تتغير مسارات الغرب العقلية، وأن تبحث لها

عن متنفسات في مجالات أخرى، فاندفع هذا العقل نحو منعطف حادّ أخذه بعيداً وبعيداً جداً عن أي اهتمام بالمعارف الدينية أو اللاهوتية كما يسمونها هناك، فوجد في الطبيعة والحياة والكون والإنسان مواضيع مثيرة يمكن أن تنصرف إليها طاقات هذا العقل التفكيرية بالدراسة والفحص والبحث والتنقيب.

وكان من ثمار هذه الدراسات المعمّقة نشوء مايسمى بالعلوم الطبيعية والحياتية والكونية والإنسانية وإنْ كانت هذه العلوم وجذورها الأولى. قد استُنْبِتَتْ في الأصل في بستان الشرق الإسلامي. واستزرعت في حديقة الحضارة الإسلامية ـ حضارة الذين يتفكرون ويعقلون ويفقهون ويعلمون ـ ثم انتقلت براعمها إلى أوروبة عبرَ بوابة الأندلس المصبّ الذي كانت تصب فيه خلاصات العقول الإسلامية في شتى المعارف والعلوم، فأفادت منها أوروبة، وبنتْ عليها وتوسعت فيها، وأضافت عليها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من نضج وكمال جعلت منها قوة حضارية تهيمن على العالم وتوجه أفكاره ومعارفه وثقافاته.

(٦)

أما في الشرق الإسلامي، فكان الثراء الفكري، والغنى الروحي، واحداً من أسباب الترهل الحضاري الذي أعاق ـ إلى حد ما ـ حركة الأمة في الاندفاع في الزمن، فوقفت حيث هي من زمانها وكأنه ـ أي الزمن ـ قد ألقى بمرساته على شواطئها ولن يغادرها أبداً إلى أي

مكان آخر، فاستنامت مطمئنة في ظل حضارتها، واسترخت أعصاب روحها المشدودة اليقظة، وَخَفَتَ لهيب عقلها، فانكفأت على نفسها تقتات على ماعندها من خزين معرفي، ورصيد فكري، دون أي انتباه لجيشانات التاريخ، ولما يمكن لرياحه العاتية أن تفعله بالشعوب والحضارات حين تصاب بالكسل وتتخلى عن نشاطها العقلي وتركن إلى الترف والبطر اللذين يزيلان النعم كما حذر الرسول ﷺ من ذلك فيما رُوى عنه : « اخشوشنوا فإنّ الترف يزيل النعم»(١).
وهكذا حملت رياح التاريخ «هولاكو ١٢١٧ـ ١٢٦٥م» وبرابرته وألقت به في قلب بغداد حاضرة العالم الإسلامي، فأعمل في أهلها السيف وأحرق المكتبات والمدارس وألقى بعشرات الآلاف من الكتب إلى نهر دجلة، فسقطت بغداد مثخنة الجراح خاوية على عروشها ينعب فيها بوم الجهل ، وينعق على أطلالها غربان الموت الفكري والحضاري.

وبعد هذا السقوط المأساوي المريع وجد الشرق الإسلامي نفسه وقد تحول بملايينه إلى غثاء فوق سيل التاريخ يتناوشه مدّ الزمان وجزره، وتتلاعب به عاصفات الأيام ومدلهمات السنين، وعاد هامشياً مسلوب الإرادة، سلبياً عاجزاً عن إنجاز أي فعل تاريخي يمكن أن يؤثر في مجرى أحداث العالم، فلم يسعه سوى الانزواء منكفئًا على نفسه، يغطّ في نوم عميق لم يوقظه منه إلاّ دوي مدافع الغازي نابليون ١٧٩٨-١٧٩٩م ابن أوروبة وسيدها وحامل حضارتها - وهي

تدك أسوار «الإسكندرية»، ولم ينتبه إلاّ على قعقعة سلاحه الزاحف به نحو «القاهرة» معقل «الأزهـر» عقل العالم الإسلامي آنذاك، وبقدر ما أذهلته المفاجأة وسلبته القدرة على أن يكون رد فعله على مستوى الغزو حضارياً وعسكرياً، إلاّ أنه عجّل في إدراكه لما يمكن أن يسببه للأمم ركونها إلى انحطاطاتها التاريخية، وجعله يبصر الهوة التي يمكن أن تنحدر إليها أية أمـة عندما تموت قوتها الإبداعية، وتنطفئ حدة ذكائها.

(٧)

ومنذ الشرارة الكبيرة التي أحدثتها مدافع «نابليون» في عقل العالم الإسلامي، وفي إثارة حافزه التفكيري، وهو يحاول الوقوف على المفتاح الذي ييسر له فتح أبواب هذه الحضارة، والكشف عن جذرها الإيماني مهما كان خافياً وغير ظاهر أو غير مقصود بالأساس. وذلك بالتعامل معها ليس بوصفها معارف إنسانية فحسب، بل بوصفها معارف يمكن لِمَنْ يصيخون السمع جيداً أن يسمعوا من خلالها صوت الله تعالى وهو يتحدث إلى البشرية قاطبةً.

فاستقراء الجانب الإلهي في المعارف والعلوم مهما كانت ومن أية جهة جاءت، هو مهمة كل فكر إسلامي يسعى لإنهاض العالم في نفوسنا بوصفه سراً إلهياً، وآيةً من آيات الله الكبرى.

وهذا هو ما يحاول الوصول إليه أصحاب الدعوة الحديثة إلى «أسلمة المعرفة» من خلال أبحاثهم وكتبهم.

ومع ذلك فإنّ الفكر الإسلامي مازال في حاجة إلى انفجار روحي وعقلي يُحطّمُ الحدود الفاصلة في أذهان عموم المسلمين بين المعرفة بالله، والمعرفة بالكون والإنسان، وهذا لن يكون إلاّ خلال بلورة نظرية إسلامية تتعامل مع الشؤون الإلهية والكونية والإنسانية باعتبارها نسيجاً معرفياً واحداً في سُدَاهُ ولُحْمَتِه.

ورغم كل ما كُتبَ حول «أسلمة المعرفة» إلاّ أنّ بلورة مثل هذه النظرية لم تَحْظَ باهتمام كبير من لدن الباحثين والكُتّاب، وإنْ كانت كتاباتهم تومئ إليها وتحوم حولها من بعيد.

وليس من باب المبالغة أو الانحياز عندما نقرر بأنَّ الذي فعل هذا وكان سبّاقاً ورائداً إليه: هو الأستاذ «النورسي» رحمه الله تعالى.

والذين كتبوا حول الموضوع نفسه من قبله، والذين كتبوا من بعده، لا تعدو كتاباتهم عن محاولات متفرقة للكشف عن بعض التوافقات بين ماتقوله العلوم الحديثة وما يقوله القرآن والسُّنَّةُ، بينما انصبّ جهد البعض الآخر على البحث في تاريخ المسلمين العلمي للإشارة إلى سبق علماء الإسلام في الكشف عن جوانب علمية لم يعرفها الغرب إلاّ في هذا العصر.

وليس من شك في أنّ هذه الجهود مشكورة ومطلوبة، ولكنها لا تكفي وحدها في تحصين المسلم ليخوض غمار المعارف دون وجل مالم تدعمها وتُقرها نظرية إسلامية تضع في أيدينا مفتاحاً معرفياً لكي نفهم ونستوعب ونحتوي دون الشعور بالتأثم أو بالقصور والدونية

إزاء طوفان المعارف الذي يجتاح حياتنا، وللحقيقة والتاريخ نقول: إنّ «النورسي» قد وضع هذا المفتاح في أيدينا حيث عمّق فينا من خلال رسائله وعياً قرآنياً حادّاً ونافذاً لنكتشف به الجانب الإيمـاني فيما يعرض لنا من أفكار مهما كان خافياً ، وإبصار مايتظاهر فوقها من بصمات إلهية مهما كانت معفية الأثـر، وأشاع فينا حساً قرآنياً مرهفاً نَتَحَسَّسُ به السُّنَنَ والنواميس القدرية الفاعلة في توجهات الإنسان العقلية والعلمية.

وإلى جانب هذا كله فقد أعطتنا رسائله شعوراً بكوننا مرتبطين بوحدة معرفيّة واحدة تشمل العالـم بأسره، وهو لا ينفك يذكر الإنسان بأنه مهيأ من حيث كينونته الإنسانية لالتقاط واستيعاب مايتنزل من جزئيات الحق وكلياته من آفاق الدين وآفاق عقل الإنسان وروحه، وهو يرى ـ أي النورسي ـ أنّ الإنسان هو نقطة المركز في دائرة الوجود حيث تُسْكَبُ في أُذُنيه أصوات الكون وإلهاماته باعتباره أنفس ثمار شجرة الخليقة، وأكثر الكائنات قدرةً على فهم ما يُرْسَلُ إليه من شفرات ورموز دالّة على عالـم ما وراء الكون الذي سنؤول إليه في خاتمة المطاف.

(٨)

والقرآن ـ كما يشير «النورسي» في رسائله ـ يذكرنا بأنّ الكون ـ بأرضه وسمائه، وبخفايا سننه ونواميسه ـ مخلوق من أجل الإنسان ومسخر له، وهو إذا تعامل معه بودّ وبعقل لمّاح سؤول يمكن أن يضع

بين يديه مايشاء من كنوزه وعطاياه. كما أنّ الأدمغة الكبيرة التي تتحرّى عن أسرار الكون وتجوس خلال ذرّاته ومجرّاته، وأرضه وسمائه ـ هي كذلك مسخرة لتكون في خدمة البشرية بما تخلص إليه من المعارف والعلوم، وبما تكشف عنه من سرّ الحياة والخليقة.

فالعقل عرش الإنسان تحفّ به إلهامات الله تعالى، وتحوم حوله، وتنتظر حاجة هذا العقل لترسل إليه بعض بارقاتها ، وتتنزّل عليه ببعض إشعاعاتها التي تفجر المزيد من طاقاته، وتشحنه بالمزيد من القدرة على البحث الدؤوب والعمل المتواصل من أجل الإنسانية قاطبة، ومايُقال عن دور «الصدفة» أو «الصدف» في اكتشافٍ ما، أو مُختَرعٍ ما، إنما هو محض وهم. إذ لا صدفة في هذا العالَم المحكم البناء ـ كما يرى النورسي ـ وما يُسمى بالصدفة ماهو إلاّ بوارق «القدر» ولوامع إلهاماته تمرّ بالذهن مرّاً سريعاً خاطفاً لتهديه بنورها إلى الحقيقة المبتغاة.

والعقول الكبيرة في سماء المعارف ـ كالشمس في سماء الدنيا ـ ضوءها مشاع بين الناس جميعاً، فكل إنسان يستطيع أن يقول: هذه شمسي أنا وحدي، ولكنه لايستطيع أن يغلق أبوابه عليها ليستأثر بها من دون الآخرين، أو يحجب نورها ودفأها عنهم، والعكس صحيح أيضاً فلا أحد يستطيع أن يغلق أبوابه دون نفاذ شعاعها إلى داره بحجة أنها لم تشرق في سماء بيته، ولم تطلع من أفق منزله، وكذلك ليس من الصواب في شيء أن يغلق المسلم نوافذ عقله إزاء

أيّ من المعارف والعلوم، ويمنع نفسه من الإفادة منها، بل يتناولها من أيدي أصحابها من حيث كونها نتاج إلهامات ربانية ما لم تتعارض مع معلوم من الدين بالضرورة، وبنية الإشارة النبوية إليها: (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنّى وجدها) أو كما قال ﷺ(٢) .

فالإيمان النمطي التقليدي لم يعد يجدي في تبديد الشكوك التي تنتاب عقول بعض مثقفي العصر، ولهذا السبب دعا «النورسي» في رسائله إلى «الإيمان التصديقي» أي: الإيمان الذي تصدقه العلوم وتدعمه المعارف الكونية والإنسانية. فالعالم ما زال وسيبقى حتى يوم الفناء الأكبر لغزاً في حاجة إلى مزيد من ضوء المعارف والعلوم للكشف عن بعض أسراره التي تشير وتومئ إلى سرّ الله فيه، وسيظل يرسم على صحيفة عقل الإنسان علامة استفهام كبرى في حاجة دائمة للمزيد من الإجابات التي تكشف عن حكمة الله الخافية فيه، فالإيمان التقليدي المتوارث الآني من دون إعمال الفكر لا يكفي لكي يمنح الإنسان القلق الشكّاك ما يحتاجه من نور اليقين والطمأنينة، فلابد له من أن يتوجه في البحث عن هذا اليقين وتلك الطمأنينة داخل البناء الكوني الأكبر بكائناته وموجوداته. والتوغل بعيداً كذلك داخل الإنسان «الكون الأصغر» مستهديا بالآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣) فكل شيء في هذا العالم وإن بدا مألوفاً عادياً لايثير اهتمام أحد إنما هو آية من آيات الله تعالى، وعلامة تدل عليه وتشير إليه، وقد آن الأوان

لكي نستمع إلى «النورسي» وهو يتحدث عن القرآن وكيف أنه يمزق غطاء الألفة عن الأشياء باعتبارها مدلولات مهمة تدل على صانعها وتفصح عنه بلسان الحال، يقول النورسي:

«إنّ القرآن الكريم، ببياناته القوية النافذة، إنما يمزق غطاء الألفة، وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، والتي لا تُذكَرُ إلاّ أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرة بديعة ومعجزاتها العظيمة، فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوي الشعور، ويلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة، فاتحاً كنزاً لا يفنى للعلوم أمام العقول»[٣].

فالتوحيد المعرفي بين «القرآن» وبين «الكون» يشكل القاعدة الأساس في فكر «النورسي» فيقول بهذا الشأن:

«نعم إنّ القرآن الكريم «المقروء» هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع الذي هو قرآن آخر عظيم «منظور»[٤].

ويقول: «إنّ الذي يحلّ طلسم الكون، ويكشف مُعمى الخلق إنما هو أنت وحدك أيها القرآن الحكيم»[٥].

ونستشف نظرته الإيمانية إلى العلوم من خلال مخاطبته لطلاب الثانوية في مدينة قسطموني حيث يقول:

«إن كلّ علم من العلوم التي تقرؤونها يبحث عن الله دوماً ويُعَرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فأصغوا إلى تلك العلوم. . »[٦].

(٩)

انظروا. . .ها هو القلم في يمين «النورسي». . .إنه لا يسجل أفكاراً مجردة عن الروح، بل يحفز الروح للتفكير، ويحرك العقل ليمضي في صلاة دائمة. . . فهذا القلم النوراني لا تراه إلاّ راكعاً أو ساجداً لا يملّ ولا يَفرُّ حتى حاز مرتبة «الأقربية» فسرت فيه قوة حياة إيمانية عظيمة تجيش وتتفجر بعظيم المعاني والأفكار. . فهو حين يكتب لاينسى طرفة عين أنه يكتب لله وللإيمان. حتى وهو يكتب حول أي علم من العلوم. . . يرى الشيء ويشير إلى بصمات خالقه فوقه، ويشهد كُلّ شيءٍ من الله تعالى وإليه، في وحدة مقصود ومعبود لا وحدة شهود ولاَ وحدة وجود، فالكون دواة هذا القلم يغمسه فيه ليرسم صور الإعجاز في بنائه، ويومئ إلى عظيم آياته وقد جعل «الإنسان المسلم» قبلة فكره، يفكر فيه، ويفكر له، ويملأه ثقةً واطمئناناً. ويثبت له أن جميع المعارف هي في أصولها الأولى تعود إلى تجليات أسمائه تعالى على العالم: «العليم» و«الحكيم» وأن المعرفة الأرقى والأعظم هي معرفته تعالى التي هي ينبوع كل المعارف الأخرى. . . وهو لا يني يكرر أن لبّ هذا الدين هو التوحيد، والتوحيد الخالص الرافض لكل أنواع الثنائيات، وأنّ هذا الفهم التوحيدي يسري بالضرورة على المعارف الكونية والإنسانية الإلهية، فتتوحد في معرفة واحدة، ويضمها بناء إيماني واحد، وهو مفتاحنا إلى «إسلامية المعرفة» أو «أسلمة المعرفة».

وعلى ضوء هذه النظرية يواجه المسلم ما يشكل على حسّه الإيماني من أمور المعارف التي يبدو البعض منها وكأنه مبتوت الصلة بأي معنىً إيماني ، وبهذا الفهم المعرفي يستطيع أن يرقى من كونه مستهلكاً لمعارف الآخرين إلى بناء « المعرفة الإسلامية » المتميزة بشموليتها، وبقدرتها الفذة على الاحتواء والاستيعاب.

ومن أجل هذه « المعرفة الإيمانية التصديقية » ، ومن أجل ترسيخ أسسها وقواعدها في الأذهان، يقول النورسي: إنه مستعدّ أن يضحي ليس فقط بحياته الدنيوية بل حتى بحياته الأخروية إذا اقتضى الأمر، بشرط ألاّ يحال بينه وبين أن يسجلها للناس وأن يبلغهم إياها. وفي مخاطبته لأعداء الدين الذين يجهدون أنفسهم في صدّ الناس عن الإقبال على « رسائل النور » يقول « النورسي »:

كما إنكم لا تستطيعون إعدام «الموت» ومسحه من فوق الأرض وهو يلتهم كل يوم كتلاً كبيرةً من البشر، كذلك لا تستطيعون إعدام «رسائل النور» والقضاء على مهمتها الإلهية في تقديم العزاء والسلوان للبشرية، فما دام ثمة أرحام تدفع بسيل هائل من الأحياء كل يوم، وثمة قبور مفتحة الأبواب لاستقبال سيل بشري مثلهم، فلا أحد يستطيع أن يمنع «رسائل النور» من تأدية واجبها في كفكفة الدموع ومسح الآلام. أو يحول بين الناس وبين أن ينكبوا على دراسة البراهين القاطعة التي تقدمها لهم؛ على أن الموت. . . الذي يخافون منه ويحزنون من أجله ليس إلاّ نافذة تطل على عالم الأبدية الجميل

جوهرة الوجود الحق وحقيقته . . .

فإذا كان ارتعاب الإنسان من «الموت» منذ القدم وحتى هذا اليوم، هو حافز كل فكر ديني وفلسفي وعلمي، إلاّ أنه مازال يشكل أحجية التحدي الكبرى للذهن البشري، فالفلسفة تريد أن تقع على حقيقته وكنهه وسره، والعلم يريد أن يعرف حقيقته وكنهه، واكتشاف السبيل للانتصار عليه، ومن هنا جاء اقتران الفلسفة بالطب عند غالبية الأطباء والفلاسفة، فما من طبيب إلا وله باع طويل أو قصير في الفلسفة، وما من فيلسوف إلا ولـه باع طويل أو قصير في الطب، قبل أن تتمايز العلوم والمعارف ويختص كُلٌّ منها بنفسه، ومع كل ذلك فإن كل فلسفات الأرض وعلومها تمضي مع الإنسان حتى باب القبر، إلاّ أنها لا تدخل القبر معه، بل ترجع القهقرى لاتلوي على شيء، بينما يمضي «الدين والإيمان» مع الإنسان في قبره ويمضي معه إلى ما وراء القبر عبرَ رحلته في عمق أعماق الأبدية.

ومهما بلغ الإنسان من العلم، ومهما وصل إليه من الحضارة، إلاّ أنه سيبقى طفلاً في ضعفه وعجزه، يحتاج إلى رعاية وعناية ومدد إلهي لاينقطع، وفي هذا الصدد يقول «النورسي» :

«إنّ الإنسان في هذا الكون أشبه ما يكون بالطفل الضعيف المحبوب، يحمل في ضعفه قوة كبيرة، وفي عجزه قدرة عظيمة، لأنه بقوة ذلك الضعف، وقدرة ذلك العجز سُخِرَتْ له هذه الموجودات وانقادت . . .

ثم يمثل لذلك بمثال، فيقول:

«إن القوة الكامنة في ضعف فرخ الدجاج تجعل أمّهُ تدفع عنه الأسد بما تملك من قوة، وإنّ القوة الكامنة في ضعف شبل الأسد، تسخر أمّهُ المفترسة الضارية لنفسه، بحيث يبقى الأسد يتضور من الجوع بينما يشبع هو مع صغره وضعفه. وإنه لجدير بالملاحظة القوة الهائلة في الضعف، بل حري بالمشاهدة والإعـجاب: تجلي الرحمة في ذلك الضعف... إلى أن يقول:

«وكذلك الإنسان إذا أنكر رحمة خالقه، واتهم حكمته. وقال مثل ماقال قارون جاحداً النعمة: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص: ٧٨) فلا شك أنه يعرض نفسه للعذاب..

ثم يستطرد فيقول:

«فهذه المنزلة والسلطنة التي يتمتع بها الإنسان إذن، وهذه الترقيات البشرية والآفاق الحضارية ليست ناشئة من تفوقه وقوة جداله وهيمنة غلبته، ولا هو بجالب لها، بل لاحتياجه، وأن سبب تلك السلطة ليس بما يملك من قوة، ولابما يقدر عليه من علم، بل هو الشفقة الربانية ورأفتها، والرحمة الإلهية وحكمتها التي سخرت له الأشياء وسلمتها إليه» (٧) .

(١٠)

والسؤال المهم الذي يطرح نفسه هنا، هو:

هل استطاع الذين خاضوا تجربة الكتابة في «أسلمة المعرفة» من

بلورة نظرية إسلامية، نستطيع على ضوئها التعامل ـ أخذاً وعطاءً ـ مع ما يواجهنا من معارف وعلوم وأفكار بعقل منفتح قادر بما يملك من وعي قرآني على الوقوف على الجانب الإيماني منها، وإدراك ماتنطوي عليه من لمسات إلهية وسنن قدرية تجري من خلال الفعل العقلي والروحي للإنسان لتشكل بالتالي صورة التاريخ الإلهي الذي يغطي بأحداثه ووقائعه وأفكاره وعلومه ومعارفه العالمَ بأسره. . . ؟ !

وهل استطاعت هذه النظرية ـ إنْ وجدت ـ إعطاء المسلم شعوراً بكونه مرتبطاً بوحدة معرفية تشمل العالم كله، وأنه هو المرصود والمرشح بما يملك من نظرة قرآنية شمولية للاستيلاء على ماينزل من جزئيات الحق وكلياته من خلال المعارف العقلية والروحية للإنسان، وأنه هو الكون الأصغر المعدّ ـ إيمانياً ـ لكي تصبّ فيه كل ينابيع العالم المعرفية. . . ؟

ولا أذيع سراً ولا آتي بجديد حين أقول:

إنّ «النورسي» من رجال الإيمان القلائل الذين فهموا زمانهم، وشخصوا عِلّةَ عصرهم. فحشد قواه العقلية والروحية ليحارب حياة عمياء خاوية من الإيمان أُطْلِقَ لها العنان، وَدُفِعَتْ بقوة لتشعل العالم، وتقيم الحرائق في كل مكان منه، وتسعى في خبث ومكر للانحراف بمغزى الحضارة وبجوهرها الأصل.

وإني لأتخيله بعينيه الصقريتين النافذتين وكأنهما تقيسان فضاء الإيمان ليختار لسموِّ كلماته ـ في هذا الفضاء ـ المكان الأكثر تأثيراً في

النفوس والأعمق غوراً في الأرواح.

فلكي يداوي علة هذا الزمان المتفلسف السَّؤول الشكاك الجحود كان لابد من «إيمان تصديقي» ضمن نظرية معرفية متوحدة تندغم فيها المعارف الإلهية والكونية والإنسانية في نسيج واحد ملتحم في سُداه ولُحمَتِه... وهذا ما حاولت أن تصنعه «رسائل النور» وأظنها قد نجحت.

(١١)

و«النورسي» يذهب إلى أبعد من هذا، فيرى ـ على ضوء نظريته في التلاحم بين ما هو إلهي وكوني وإنساني ـ في معجزات الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه، معنى أكبر وأوسع مما اجتُرِحَتْ المعجزة لأجله من هدف إيماني محدود بالزمان والمكان والناس.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، وابتداءً من معجزة «إبراهيم عليه السلام» وخلاصه من الحرق بنار النمرود، ومروراً بعصا «موسى عليه السلام» وتفجيرها الماء العذب من الحجر. ونفاذاً مِمّا يشبه الطبّ عند «عيسى عليه السلام» في شفائه للمرضى وإحيائه للموتى، وانتهاءً بإسراء رسولنا الحبيب وبمعراجه عليه الصلاة والسلام... كل هذه المعجزات وما يشبهها ويقترب منها، إنما هي في رأي «النورسي» إيماء إلى خط النهاية لما يمكن أن يسعى الإنسان إلى تحقيقه، عن طريق العلوم والمعارف، وتشويق للبشرية وتحفيز لعقلها للإتيان بما يشبه هذه المعجزات أو بالحدّ الأدنى منها على أقل تقدير.

وما حققه العلم اليوم من الوقاية من الحرائق، وما أفاده من «عصا الاستشعار» للكشف عن المياه والمعادن في جوف الأرض، وهذا التقدم الهائل في العلوم الطبية، ومحاولات الإنسان الحثيثة لاكتشاف الفضاء والنزول على الكواكب، كل هذه الإنجازات كانت المعجزات قد أشارت إليها ورمزت لها [٨].

فما من نتاج علمي إلاّ وينطوي على «القدري» بالإلهام والتحفيز، و«الكوني» بسننه ونواميسه، و«الإنساني» بالصنع والتنفيذ. وحتى التاريخ البشري إنما هو صنيع «قدري» من جانبه الخفي غير المنظور، و«سنني كوني» لأنه لا يمكن أن يغالب سنن الكون ونواميسه، و«إنساني» لأن الإنسان هو مادة التاريخ وبطله.

وهكذا وعلى ضوء هذه النظرية المعرفية الإسلامية «النورسية» يمكن أن نواجه المعارف وأن نتعامل معها من منطلق قوة معرفية قادرة على التفسير والاستيعاب والاحتواء.

* * *

أديب إبراهيم الدباغ

الهوامش

(١) انظر : كشف الخفاء [١٥٧] .

(٢) انظر: كشف الخفاء [١١٥٩] .

(٣) الكلمة الثالثة عشرة من كتاب «الكلمات» ص ١٥٠ للنورسي - ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

(٤) الكلمة الثانية عشرة من كتاب «الكلمات» ص ١٤٣ للنورسي - ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

(٥) الكلمة الثانية عشرة من كتاب «الكلمات» ص ١٥٣ للنورسي - ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

(٦) المسألة السادسة من رسالة «الثمرة» ص ١٧٥ من كتاب «الكلمات» للنورسي - ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

(٧) الكلمة الثالثة والعشرون من كتاب «الكلمات» ص ١٥٠ للنورسي - ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

(٨) انظر «المقام الثاني» من «الكلمة العشرون» من مجلد «الكلمات» للنورسي - ترجمة إحسان قاسم الصالحى.

النورسي... وفقه الدعوة

(١)

الدعوة إلى الله تعالى ليست بالأمر الهين الذي يمكن لأي كان أنْ يخوض غمارها، ويجرب حظه فيها ؛ لأنّ الإنسان المخاطب بهذه الدعوة كائن صعب، يصعب على الفهم، ويستعذر على الإدراك، فقد حار فيه الدارسون والباحثون، وأعجز الفلاسفة والحكماء والأخلاقيين وأعيا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فهو يحب الحق ويُغْرَمُ به إلاّ أنه ينوء بحمله ، وقد يمضي إلى حد كراهيته ومحاربته، ورفض الالتزام به. وحمل مسؤوليته، والقرآن الكريم يشير إلى ذلك قائلاً: ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (الزخرف: ٧٨).

فالحق المطلق الذي هو من وراء كل حق نسبي يعرفه الناس ويختصمون من حوله على هذه الأرض، هو فوق هذا العالم المحسوس، ينزل منه بقدر معلوم على الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وجوهر الحق واحد لا يتغير، إلاّ أن الإنسان الضعيف نفسه يراه يلبس أثواباً شتّى ، ويتلون بألوان مختلفة، وهذا هو سبب اختلاف

دعوات الرسل والأنبياء، واختلاف معجزاتهم وشرائعهم. وأساليب دعوتهم الى الله تعالى.

فعموم النّاس لا يطيقون مكاشفتهم بالحقائق مباشرةً ووجهاً لوجه، فما لم يكن جهازهم النفسي قد بلغ درجة عالية من السمو والصفاء والرهافة مع القوة والثبات، فإنّ من غير الحكمة مواجهتهم به. وقدح زناد نوره في جنبات أنفسهم، ومن هنا نستطيع أن نفهم الحكمة في أنّ الكثير من الحقائق ـ ولا سيما المستقبلية منها ـ قُدِّمَتْ إلى الناس في القرآن والحديث وسطاً بين الغموض والإفصاح، وتُرِكَ لعقولهم مهمة فك أغلفتها وفهم رموزها، والوقوف على حقيقتها من خلال الأجيال والأعصار، وقد أشار إلى هذا أستاذنا «النورسي» في معرض بيانه لحكمة المتشابه من آي القرآن والحديث.

ولّما كان رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه هو خاتم الأنبياء والرسل، فلا نبي ولا رسول بعده، كان ما حُمِّلَ من «الحق» أثقلَ ما حُمِّلَ منه نبيٌ أو رسولٌ من قبله ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾(المزمل: ٥) وحين اصطفاه لرسالته تعالى لم يفجأه بها فُجاءةً، ولم يلقها إليه دون أن يمهد لها في نفسه تمهيداً.

ورغم أنّ قلبه ﷺ هو أثبت قلوب البشر وأقواها وأطهرها وأفسحها وأظمؤها إلى «الحق»، إلاّ أنه لم يكن يطيق أن يغمره الحقُّ القرآنيُّ ويلقي بثقله كله عليه مرةً واحدةً. فلم يتنزل جملةً واحدةً، ولا دفعةً واحدةً ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ

تَنزِيلاً﴾ (الإسراء : ١٠٦).

فسبق نزول «الحق» إرهاصات وطوالع وهواتف جعلته يحسّ صلوات الله وسلامه عليه أنّ حدثاً ما سيحدث له، وأنّ أمراً خطيراً يوشك أنْ ينزل به. وأنّ شيئاً ما يهزّ نفسه وكأنه يريد لها أن تستعدّ لقبول ما سيأتيها به الغيب الذي يحسُّه ويشعر بـه إلاّ أنه لا يعرف ما يريد.

تقول عائشة رضي الله عنها: « إنّ أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من النبـوة ـ حين أراد الله كرامتـه ورحمةَ العبـاد بـه ـ الرؤيـا الصادقة»[1].

وعن عبدالملك بن عبيدالله: «. . . فلا يمرّ رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلاّ قال: السلام عليك يا رسول الله. . »[2].

وعن عبيد بن عمير عن الرسول ﷺ : «. . . فخرجتُ حتّى إذا كنتُ في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعتُ رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفتُ أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتُهُ كذلك. . . » [3].

فلما استنارت نفسه الشريفة ببوارق الوحي، وأنستْ بلوامع من بعض نوره، تهيأ لاستقبال الوحي، واستعدّ لنزول «الحق»، فارتقت

بذلك ذاته الطاهرة حتى صارتْ الأفق الرفيع الذي تلتقي عنده أشواق الأرض بأشواق السماء، والبحر العظيم الذي تصبّ فيه ينابيع عالمي الغيب والشهادة. والطريق المنير الذي لابد من المرور من خلاله لمن يريد النجاة والخلاص في الدنيا والآخرة.

(٢)

ولما كانت النفوس البشرية ليست على درجة واحدة من الاستعداد لقبول «الحق» والالتزام به، وتحمّل ثقله وأداء أمانته، لذا فليس من الحق أن نقول «الحق» ـ كلَّ الحق ـ في كلّ زمان وفي أيّ زمان، وليس من الحق أن نقول الحق ـ كلّ الحق ـ في كل مكان وفي أيّ مكان، كما يعلمنا «النورسي»[٤]. وذلك لأن «الحقّ» ثقيل هائل الثقل في ميزان السموات والأرض، وجسيم جسامة الجبال الرواسي في عين الحياة والوجود. وما أكثر ما ينوء الإنسان بحمله، ويشفق منه، يجور عليه، وينحرف عنه، وقليل هم أولئك الذين يطيقون حمله ، والاصطبار عليه ، والوقوف معه ، والالتزام بتبعاته ومسؤولياته، وأقلُّ من القليل أولئك الذين لا يضيقون ذرعاً بأسراره، ولا يشعرون بثقلها على نفوسهم، فيسرعون بطرحها عنهم، وإلقائها على الآخرين دونما تمييز ليستريحوا من حملٍ لم يكونوا مؤهلين بالأساس لحمله، فيخطئون بحق أنفسهم مرةً ويخطئون بحق الحق المؤتمنين عليه ألفَ مرّةٍ.

فما أكثر الذين دفعوا رؤوسهم ـ بلا طائل ـ ثمناً لكلمة حق لم

يحسنوا قولها وما أكثر الذين أباحوا دماءهم من أجل ما أفشوه من علم ما كان ينبغي أن يُفْشى ، وما أذاعوه من سرٍّ بينهم وبين الله تعالى ما كان ينبغي أن يشيع ويُفَضَّ خاتم الصمت عنه. حكى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: «إني رَويتُ عن رسول الله ﷺ وعاءين أحدهما هو الذي بَثَثْتُهُ فيكم، وأما الثاني فلو بثثته لحزرتم السكين على هذا البلعوم. وأشار إلى حلقه » (٥) .

فالرسول ﷺ ـ وكما هو معلوم من السيرة ـ خصّ بعض صحابته وبعض أهل بيته بما لا يريد أن يشيع أمره في عموم المسلمين. وأفضى للصحابي الجليل «حذيفة بن اليمان» بعلم أسماء جميع المنافقين المخفيين في زمانه ومنعه من إذاعة أسمائهم حتى بعد وفاته، وأئمن آخرين على بعضٍ من شؤونه وترك لهم الخيار في التحدث أو عدم التحدث عنها بعد وفاته.

(٣)

ففقه الدعوة إلى الله تعالى هو أشرف أنواع الفقه، وأكثرها فائدةً لأصحاب الدعوات، ومن غير هذا العلم الذي هو فنٌّ كذلك، يضرّ الدعاة من حيث يظنون النفع، ويهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون، فهذا الفقه ـ إذا نحن فقهناه ـ يضع بين أيدينا أشدّ الموازين حساسية، وأدقّها في التمييز بين ما هو واجب وما هو أشدّ وجوباً، وبين ما هو خير وأكثره خيريةً، وبين ما هو باطل وأقله في البطلان، وبين ما هو شرّ ودونه في الشرية. . . إلخ فلا نرى بأساً من الرضا

بقليل من الباطل من أجل الكثير من الحق، وأن نتنازل أحياناً عن بعض الحق من أجل ألاّ نخسر الحقّ كلّهُ، وأن نقبل بشرٍّ مخافةَ شرٍّ أعظم منه، وبباطل مخافةَ باطلٍ أعمّ منه، ومن خلال ذلك نستطيع أن نبصر الخيط الرفيع من الحق بين الحزمة الهائلة من الأباطيل، فنمسك به بأناة، ونسحبه برفق لنضمّهُ إلى نسيج الحق الذي ننسجه ونؤلف بين خيوطه خيطاً خيطاً.

فالداعية إلى الله لا يعفيه إيمانه وإخلاصه من لوازم الحكمة وضوابط العقل، ليكون داعياً ناجحاً كما تريده الآية الكريمة: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥) فلا بدّ له من اختيار الظرف المناسب ليقول ما يريد دون ضجيج قد يوقظ نائماً ربما كان من الأفضل للحق نفسه أن يظلّ غاطّا في نومه لا ينتبه منه أبداً.

وقد قرأتُ هذه الحكاية ذات الدلالات المغنية عن الكثير من القول في حكمة الدعوة، وفنّ الحديث:

في زقاق من أزقة دمشق شاهد فقيهٌ أريب واحداً من تلامذته ممسكاً بتلابيب جندي سكران من جنود «هولاكو»، وبيده قارورة خمر يعُبُّ منها بين الفينة والفينة وهو يترنح ذات اليمين وذاتَ الشمال، والتلميذ الهمام ممسك به يعظه ويشرح له حكم الإسلام في الخمر وشاربها، فما كان من الأستاذ الفقيه إلاّ أنْ أشار إليه زاجراً وناهراً وقال: اتركه يا بُنيَّ في سكره فإنه لو صحا لصارت دماءُ المسلمين خمرتَهُ، وجزٌّ رقابهم لُعبَتَهُ (٦).

وقديماً قال علماؤنا: كنّا نعيبُ على الرجل أن يكون علمه أكبر من

عقله، وأن يكون عقله دون علمه.

ولعلمائنا كذلك: ليس العاقل الذي يعلمُ الخير من الشرّ، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين، وشرّ الشرّين.

ولشاعرٍ:

إنّ اللبيب إذا بدا من جسمه   مرضان مختلفان داوى الأخطرا

(٤)

فخدام القرآن والدّاعون إليه أصحاب رسالة هي أثقل في ميزان الحق من كلّ حق سواها. وهم ينطوون على قوة عظمى لو سلطت على الجبال الرواسي لأذابتها وجعلتها دكاء. وإنهم بسبيل تفجير طاقة بناء حضارية هائلة خبيئة في كلماته وآياته، ستصك - لو تفجرت- سمع العالم، وتهزّ أركان الوجود الإنساني على هذه الأرض؛ لأنّ «القرآن» ينطوي على قوة من الذات الإلهية بالوحي والتنزيل، وعلى قوة من الذات المحمدية بالتلقي والتبليغ، وعلى قوة من الذات الكونية بالتدليل والتمكين.

فكتاب يبلغ من قوة الحق هذا المبلغ الذي لا يبلغه حقّ سواه، لا جرم أنه يكسح ما توارثته البشرية من عقائد خرافية إذا ما عرفته وآمنت به، وسيخلّ بموازين القوى الفكرية والمعرفية التي لها اليوم الهيمنة على عقل العالم، فلا عجب إذا ما خافته أباطيل الشعوب، وأشفقت منه أديان وحضارات انحرفت بالإنسان ودفعت به إلى زوايا معتمة خلف ضباب حالك من جهل الروح وأمية الفكر والعقيدة.

وبسبب من أخطاء البعض من الجماعات الإسلامية اهتزت صورة الإسلام في أعين المراقبين من المعنيين بشؤون الأديان والدعوات. وقد انتهز الإعلام عموماً والإعلام الغربي خصوصاً هذه الفرصة الذهبية للمزيد من التشويه لصورة الإسلام وإظهاره بمظهر الدين الدموي الذي لا يعرف سوى العنف والإرهاب.

فحقيقة الإسلام المجردة في حاجة اليوم الى العلم الذكي الأريب الذي يكرس جهده من أجل رسم حقيقة الإسلام من غير تشويه، ومن أجل تبديد ما علق بأذهان الآخرين من تصورات سوداوية عنه.

فمهما يبلغ من إحساسنا ـ نحن المسلمين ـ بالظلم والقهر، فلا ينبغي أن تكون ردود أفعالنا على ذلك سلوكيات وتصرفات متسرعة من جنس سلوكيات وتصرفات أعدائنا.

وإنّ من الخطورة بمكان أن ينساق البعض ـ وأحياناً يُستدرج ـ وراء أهداف وشعارات لم يحن بعدُ زمنُ فهمها لتصبح محلّ قبول وترحيب لدى الناس، فيكون ذلك سبباً كافياً لشعوره بالإحباط وربما اليأس الذي كثيراً ما يدفعه لممارسة سلوكيات غير منضبطة تسوقه تدريجياً إلى مضيق خانق لا يعرف كيف يخرج منه، وربما وجد نفسه في خاتمة المطاف أمام خيار واحد لا خيار له غيره للخروج من هذه المحنة وهو: إمّا أن يظلم أو أن يُظْلَمَ، وإما أن يَقْتُلَ أو أنْ يُقْتَلَ.

فالاكتئابُ الروحي الذي تعاني عذابه وآلامه بعضُ الجماعات الإسلامية أورثها رغبةً خفيةً بالموت، فكما يفضي الاكتئاب المرضي

في كثير من الأحيان إلى الجنون وإلى الرغبة بالانتحار لدى الأفراد، فهو كذلك لدى الجماعات، فتساق للانتحار مدفوعةً بهذه الرغبة الخفية، فتقدم على أي عمل جنوني من أجل أن تضع حداً لحياتها ووجودها، وهذا هو بالضبط ما يريده الأعداء ويتمنونه.

وكأنّ «النورسي» رحمه الله كان يحدس بما سيؤول إليه أمر بعض الجماعات الإسلامية في قابل أيامها، فحصّن نفسه وحصّنَ دعوته من هذا المرض الخطير الذي يمكن أن تُصابَ به الجماعات والدعوات في كل وقت، فرفع بادئ ذي بدء، ومنذ اللحظات الأولى لدعوته شعاراً غاية في التواضع والبساطة يتلخص بكلمتين اثنتين هما «إنقاذ الإيمان».

ولم يشُمَّ الدنيويون منه رغبةً في سحب البسط من تحت أقدامهم، ولا السياسيون رغبةً في التحرض بكراسيهم، وأعلن أن دعوته لا تمرُّ ولن تمرّ من أبواب السياسة الضيقة، بل هي دعوة ترى في «الإيمان» وفي «الإيمان» وحده خلاص العالم، وخلاص السياسة نفسها بطرفيها «الحاكمين والمحكومين» من الاختناق في سجن الدنيا وفي قبضتها الماحقة.

لقد بلغ من رهافة الميزان الذي كان يزن به «النورسي» أمور المسلمين وسلوكياتهم حداً بات مستعصياً على الانفعالات الآنيّة، وردود الأفعال المتشنجة التي تورد موارد الهلاك في كثير من الأحيان، وإليك مثلاً من هذا الفهم الواعي والعقلاني الذي كان

يعالج به الأمور التي يُرادُ له الخوض فيها:

«نشبت ثورة في الأقاليم الشرقية من «تركيا» بقيادة الشيخ «سعيد پيران» الذي كان زعيماً بارزاً بين العشائر الكردية، وكانت هذه الثورة موجهةً ضدّ سياسة «مصطفى كمال» الذي أثار نقمة الشعب باتجاهه المعادي للدين الإسلامي، وقبيل اندلاع الثورة أرسل الشيخ «سعيد پيران» رسائل إلى الأستاذ «سعيد النورسي» يطلب منه الاشتراك معه في الثورة ضدّ حكومة «أنقرة» فرفض لعدم رغبته في إهراق دماء المسلمين الأبرياء في حركة لا أمل فيها.

ونسجل هنا حواراً جرى بينه وبين «حسين باشا» رئيس إحدى العشائر الكردية:

حسين باشا: أريد أن أستشيرك في أمر، إنّ جنودي حاضرون، والخيول موجودة وكذلك الأسلحة والذخائر، وأنا أنتظر أمراً منكم.

النورسي: ماذا تقول؟ ما الذي تنوي فعله؟ ومن ستحارب؟

حسين باشا: سنحارب مصطفى كمال.

النورسي: ومن هم جنود مصطفى كمال؟

حسين باشا: ماذا أقول... إنهم جنود!

النورسي: إنّ جنوده هم أبناء هذا الوطن، هم أقرباؤك وأقربائى، فمنْ تقتل؟ ومن سيقتلون؟ فكر وافهم، إنك تريد أن يقتل الأخ أخاه.

حسين باشا: إنّ الموت لأفضل من مثل هذه الحياة.

النورسي: وما ذنب الحياة؟ إذا كنت قد مللْتَ من حياتك فما ذنب المسلمين المساكين؟

حسين باشا: «متحيراً» لقد أفسدت عليّ عزيمتي ورغبتي ، ولا أدري كيف سأقابل عشيرتي التي هي بانتظار عودتي، سيظنون أنني جبنتُ. لقد أضعتَ قيمتي بين العشيرة.

النورسي: وماذا لو كانت قيمتك صفراً بين الناس، وكنت مقبولاً عند الله تعالى؟

وعندما قال له «حسين باشا» إنه يريد تطبيق الشريعة قال له النورسي: أتريد تطبيق الشريعة الإسلامية؟ إنّ تطبيق الشريعة الإسلامية لا يكون بهذه الطريقة، فلو قلت لك: يا حسين باشا.. تعال مع جنودك الثلاثمئة لتطبيق الشريعة، فإن جنودك وهم في طريقهم إلى هنا سيقومون بنهب وسلب كلّ من يمرون عليهم في الطريق.. وهذا مخالف للشريعة»[٧] .

ورغم ما نأخذه على «الدنيويين» من استغراق في «الدنيا» وانغمار فيها من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، فيقيسون أمورهم جميعها بمقاييسها، ويزنون نجاحهم أو إخفاقهم بموازينها، فإنّ المسلمين قد يجارونهم في هذا التصور المنحرف أحياناً دون شعور، فيقيسون دعوة الإيمان بمقاييسهم ويزنونها بموازينهم، فيستعجلون عندئذ النجاح، ويرتكبون الأخطاء وربما الحماقات من أجل أن يحققوا نجاحاً دنيوياً سريعاً، ناسين أو متناسين أن للإيمان موازينه وحساباته الأخروية،

وينسون حديثه ﷺ: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» (٨) أو كما قال، وينسون أو يتناسون أن الدنيا ليست هي خاتمة المطاف، وأننا مأمورون بأن نزرع فيها حبّات الإيمان، ولا يلزم أن نكون نحن الحاصدين، ولعلّ أجيالاً أخرى تأتي بعدنا هي التي ستحصد ما تسنبل ونضج من زرعنا، وهذا هو النجاح الحقيقي وإن كان غير آنيّ ولا منظور دنيوياً من قِبَلنا ، إلاّ أنه مرصود ومعلوم أخروياً.

فالموازين الأخروية هي الموازين التي ينبغي للمؤمنين أن يزنوا بها أعمالهم ويسعوا لكي تثقل فيها وترجح في كفتها، فذرة عمل خالصة لله تعالى ترشحهم للقبول لديها، وتهيؤهم للحصول على مكان عندها، لأنها - أي الآخرة - هي الحياة الحقيقية الخالصة والمحصنة ضد الموت والعدم، أما الحياة الدنيا فما هي إلا ظل من ظلالها سيطويها الزوال والفناء يوماً بكل موازينها ومقاييسها.

(٥)

إنّ «إنقاذ الإيمان» الذي جعله «النورسي» محور تفكيره في رسائله ومؤلفاته كان يعني عنده التقاء الأعداء ومواجهتهم في قلب المعركة، ومحاصرتهم في المكان نفسه الذي اختاروه لحشد قواهم وقدراتهم وإدارة معركتهم، لأنّ معاولهم وفؤوسهم كانت موجهة بالأساس ومباشرة إلى «الإيمان» وجذوره وأصوله في وجدان الأمة وتراثها الروحي والفكري، ومن يطلع على ما يُسمّى بـ «دائرة المعارف

التركية» المؤلفة في زمن الكماليين، وينظر إلى ما كُتِبَ في لفظ الجلالة «الله» يكاد يصعق لهذه الجرأة الوقحة. ولهذا الجهل الأعمى الذي أريد إلباسه لباسَ العلم.

لذا كان من همّ «النورسي» تعزيز ثقة الأمة بإيمانها بالله تعالى، وتوثيق هذا الإيمان وتقويته بالأدلة التصديقية القائمة في الكون والحياة والإنسان، وتحطيم الربوبيات الكاذبة التي طُلِبَ من الأمة أن تستبدل بها عقيدتها في الإله الواحد الأحد، كالطبيعة والصدفة وأمثال هذا الجهل المركب الكثير الذي قدّم للأتراك مقروناً بالعقلانية والعلم والتقدم والمدنية.

فالتشويش على «الإيمان» وإثارة الشكوك حوله يفضي ـ كما هو ملاحظ ـ إلى هدم الأساس الذي يقوم فوقه صرح الأمة وبناؤها المتماسك، وإلى زعزعة ثقتها المطلقة بالشريعة وأحكامها وعدالتها التي ظلّت تحتكم إليها في شؤونها الحياتية عبر قرون مديدة.

فالإيمان هو لبّ الشريعة وجوهرها وقوام حياتها ووجودها، وحين يضعف الإيمان أو يختفي يستهين بها الناس، ويديرون ظهورهم لها. وتقلّ أو تنعدم استجاباتهم لها، وانصياعهم لحكمها، وربما انزلقوا إلى حدّ إشهار السيوف في وجهها، وما أمر «الردّات» اليوم في أماكن مختلفة من العالم الإسلامي بِخافٍ على أحد كذلك.

وبالعكس من ذلك فكلما زاد الإيمان وعمق في وجدان الأفراد والمجتمعات كان استسلامهم للشريعة، وخضوعهم لها، واستجابتهم

لأمرها في غاية السهولة. حتى ليستعذب الناس أحكامها مهما ظنّوا بها المرارة ، ويقبلون ما تفرضه عليهم من حدود إيماناً واحتساباً مهما بدت لهم شديدة وقاسية، وحتى ليستقبل أحدهم الموت راضياً مطمئناً لعلمه أنه السبيل إلى تطهيره مما اقترفه من إثم ليكون مقبولاً عند الله تعالى.

والإيمان... والإيمان العميق وحده هو الذي حمل تلك المرأة المؤمنة لكي تأتي الرسول ﷺ وتنادي على ملأ من الناس:

طهرني يا رسول الله، وهو يعرض عنها، حتى كررت ذلك واعترفت بما في بطنها أنه ثمرة فعلها الشنيع، فقال لها صلوات الله وسلامه عليه: انصرفي حتى تضعي ما في بطنك... فغابتْ زمناً ثم عادت تحمل طفلها بين يديها... فقال لها : اذهبي حتى تفطميه... فغابت زمناً ثم عادت تحمله وبيده كسرة خبز يقضم منها... وعندئذ أمر بها فرجمت... ولمّا سبّها خالد بن الوليد رضي الله عنه وأقذع في سبّها، قال له الرسول: «على رِسْلكَ يا خالد، فوالله لقد تابتْ توبةً، لو تابها صاحبُ مكْسٍ لغُفِرَ له» (٩). أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه.

فتنفيذ شرع الله تعالى، وإقامة حدوده يتطلب إيماناً عظيماً فيمنْ يقع عليه الحدّ، وفيمنْ ينفذ هذا الحد... فالجلاّد الذي يقيم حدّ الموت.. أو أيّ حدّ آخر دونه ـ ينبغي أن يتجرد لحظة تنفيد الحكم من أى شعور بالكراهية والحقد أو الرغبة بالانتقام، وأن يقدم على

عمله بنية أنه أداة بيد الشرع الإلهي ليس إلاّ. . . أما حين يُنْزِلُ العقاب وهو مشحون بالكراهية والحقد والرغبة بالانتقام فإنه يتحول في هذه اللحظة الحرجة والحاسمة إلى قاتل بالنية يُعاقَبُ على فعله يوم القيامة.

«النورسي» رحمه الله ينبهنا إلى هذه الشعرة الرفيعة ـ التي قلّما ينتبه إليها أحد ـ التي تفصل بين أن يكون الجلاّد قاتلاً يُقْتَصُّ منه يوم القيامة، وبين أن يكون أداة طيعة بيد الشرع يُثابُ على فعله.

(٦)

فالدعوة إلى «الشريعة» قبل الاطمئنان إلى ثقل إيماني راسخ مراهقةٌ فكريةٌ فيها من الخيال الشيء الكثير، وهي قفزة في فراغ ـ من دون قوة ذاتية دافعة ـ تجعل صاحبها كالريشة في مهبّ الريح، وربما سبّبتْ سقوطه على رأسه ودقّ عنقه.

فالقرآن الكريم نفسه فيه من التوكيد على «الإيمان» أكثر بكثير من توكيده على الأحكام، لأن عمق الإيمان ورسوخه في الفرد والمجتمع يحجزهما ـ إلاّ في القليل النادر ـ عن اقتراف ما تحاسب عليه الشريعة. وقد روي عن الشافعي ﷺ أنه قال: «إنها ـ أي سورة العصر ـ لو لم ينزل إلى النّاس إلاّ هي لكفتهم»[١٠]. ففيها من التوكيد على الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ما يكاد يغني عن أية أحكام أخرى لو التزم الناس بما جاء بها حقّ الالتزام.

كما أنّ الفطرة النقية غير الملوثة يمكن أن تقود الإنسان إلى الإحساس بوجود الله تعالى، وتدفعه للإيمان به، وطلب معرفته، والتودّد إليه، وكسب رضاه، واستجلاب عونه ورحمته، حتى من غير توجيه ديني أو فكر بشري.

فـ «حي بن يقظان» في قصة «ابن طفيل» ذو مغزى عميق يشير إلى هذه الحقيقة ويؤكدها، فالطفل البرىء الذي ألقت به الأقدار إلى تلك الجزيرة النائية في عرض البحر والخالية من البشر، حتى أنه لم يجد من يعتني به سوى ظبية حنون كانت تلقمه ثديها كلما بكى من الجوع، الأمر الذي جعله يعلقُ الحيوانَ، ويعلقه الحيوانُ، فنشأ ممسوح الذهن من أية عقائد أو أفكار دينية أو بشرية. ومع ذلك كله استطاع حين وعى نفسه ووعى العالم من حوله أن يصل بنور الفطرة في داخله إلى الإيمان بالله تعالى.

فالإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر قد يكون سبباً للخلاص والنجاة يوم القيامة أما معرفة الشريعة والخضوع لأحكامها والتعامل معها كأحكام مجردة فقط ومن غير تقدمة إيمانية راسخة فإنها لا تكفي للنجاة في يوم القيامة.

فالمنافقون ـ في عصر الرسالة وفي كل عصر ـ ربما يسلمون أنفسهم ظاهراً لأحكام الشريعة خوفاً ورهباً، بينما تغلي بواطنهم بالحقد عليها، والكراهية لها، حتى لينتهز أحدهم أية فرصة للانسلاخ عنها والتمرد عليها. وربما إشهار السيف بوجهها.

وهذا الذي قدمناه لا يعني بأي حال من الأحوال أن «النورسي» رحمه الله لا يريد للشريعة أن تقوم لها قائمة، أو أن يكون لها سلطان، وإنما كل الذي يريده هو التوكيد على أسبقية الإيمان، والتوكيد على ضرورة تنظيف الأرض من تحت أقدامها، وتمهيد السبيل لمجيئها، وذلك بترويض الإنسان، واجتثاث عرق التمرد والعصيان من نفسه الأمارة بالسوء. حتى إذا استقرّ الإيمان فيها بلا منازع جاءت الشريعة لتتوج هذا الإيمان وتعطيه أبعاده التنظيمية وترسم له حدود تعامله مع الأفراد والمجتمعات.

فالدعوة إلى «الشريعة» قبل التمهيد لها بالعودة إلى «الإيمان» هي كمن يضع العربة أمام الحصان كما يقال في الأمثال، وهي تقديم المهم على الأهم، وهي تشبه عملية إرساء بناءٍ شامخ من دون أساسٍ قويٍ وصلبٍ، وفي هذا من الخطورة والضرر على الأفراد والجماعات ما يكاد يلمس لمس اليد.

وربّ قائل يقول: إنا مسلمون مؤمنون لا شك في إسلامنا وإيماننا، وكل الذي نحتاجه اليوم لكي يستقيم أمرنا، وتعتدل شؤوننا، وتتوازن حياتنا؛ هو الشريعة بموازينها وأحكامها. وبما ترسيه بيننا من الحق والعدل، وبما تقيمه من معالم وترسمه من حدود.

ولا يشك أحد في إيمان الأمة وفي إسلامها، ومهما يكن هذا الإيمان مشوباً بالضعف والسطحية فإنه يمكن أن يكون سبباً في نجاتها من عذاب جهنم الأخروي.

ولكنّ هذا الإيمان الذي بدأ يتسطح وينقص منذ زمن بعيد غير قادر على إنقاذ المسلمين من عذاب جهنم الدنيوي المحسوس والماثل أمامهم. فالكرة الأرضية اليوم بما فيها ومَنْ فيها استحالت إلى جهنّم دنيوية، تنزل بالإنسان من صنوف العذاب والإحراق ما يجعله يستغيث ولا مغيث، فالحرائق تجتاح العالم من كل جهة، ومن كل جانب، حتى غدا الإنسان نفسه بركاناً نارياً يأكل بعضه، ويمسّ بشواظ من روحه أرواح الآخرين وعقولهم وضمائرهم. وصار الضمير البشري حطباً لنيران المطامع والرغائب والشهوات، واستعرت «الأنا» في إنسان هذا الزمان ، فانتفخت وتورمت ونسيت نفسها ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (الحشر :١٩) حتّى تألّهت. وبات الفكر والعلم والمعرفة بل ما يسمى بالحضارة كلها في خدمة هذه «الأنا» الناضحة بكل ما يموج به العالم اليوم من شرور وآثام كما يقول «النورسي » حتى أصبح من لوازم الكياسة عند هذه «الأنا» أن يبارك المظلومُ ظالمَه، ويرثي المقتولُ قاتلَه. ويسبّح الجائعُ المعدم بحمد الشبع المُتْخَم.

فالمسلمون اليوم ـ شعروا أم لم يشعروا ـ يُساقونَ إلى هذا الجحيم سوقاً، ويُدْفَعُونَ إليه دفعاً، وهم على شفا حفرة من ناره ولهبه، ولن يحول بينهم وبين التهافت والسقوط في قلب أتونه المتسعر إلا ثقل إيماني كالطود يشدهم إليه شدا محكماً، ويمسك بهم بقوة قبل أن تخطفهم عاصفاته اللاهبة ودوّاماتُهُ المجنونة، لتقذف بهم خارج دينهم

وخارج حضارتهم وتاريخهم، فكما تمسك الجبال الرواسي الكرة الأرضية من الانفلات من قبضة الكون والضياع في شعاب الفضاء المهول، هكذا ينبغي للمسلم أن يشدّ نفسه إلى رواسي الإيمان وأطواده الشامخات. وإلا انفلت من قبضة الإيمان وتاه وسقط على أمّ رأسه في الأتون الجهنمي الأرضي.

وهذا هو الإيمان الذي دعا إليه «النورسي» وأراد إنقاذه من براثن هذا الجحيم الدنيوي الذي يريد أن يأكل الأخضر واليابس، ويأتي على كل موروثات المسلمين الإيمانية والحضارية.

(٧)

وفي جوابه للذي سأله عن حكمة الحديث الشريف: «جدّدوا إيمانكم بـ «لا إله إلاّ الله» [١١] يقول «النورسي»:

«فقد ذكرناها - أي حكمة الحديث - في كثير من «الكلمات» والآن نذكر حكمةً منها:

إنّ الإنسان لكونه يتجدد بشخصه وبعالمه الذي يحيط به فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه دائما ؛ لأنّ الإنسان الفرد ما هو إلاّ أفراد عديدة، فهو فرد بعدد سني عمره، بل بعدد أيامه، بل بعدد ساعاته، حيث إنّ كلّ فرد يعدّ شخصاً آخر، ذلك لأن الفرد الواحد عندما يجري عليه الزمان يصبح بحكم النموذج يلبس كلّ يوم شكل فردٍ جديد آخر.

ثمّ إنّ الإنسان مثلما يتعدّد ويتجدّد هكذا فإنّ العالم الذي يسكنه

سيّار أيضاً لا يبقى على حال، فهو يمضي ويأتي غيره مكانه فهو في تنوع دائم، فكل يوم يفتح باب عالم جديد.

فالإيمان نور لحياة كلّ فرد من أفراد ذلك الشخص من جهة، كما أنه ضياء للعوالم التي يدخلها ، وما «لا إله إلاّ الله » إلاّ مفتاح يفتح ذلك النور.

ثم إنّ الإنسان تتحكم فيه النفس والهوى والوهم والشيطان، وتستظلّ غفلته وتحتال عليه لتضيق عليه الخناق على إيمانه حتى تسدّ عليه منافذ النور الإيماني بنشر الشبهات والأوهام، فضلاً عن أنه لا يخلو عالم الإنسان من كلمات وأعمال منافية لظاهر الشريعة بل تعدّ لدى قسم من الأئمة في درجة الكفر. لذا فهناك حاجة إلى تجديد الإيمان في كل وقت، بل في كل ساعة في كل يوم»[١٢].

وشخصية الأمة شأنها شأن شخصية أفرادها لا تبقى على حال واحدة، فينتابها التغيير والتجديد كذلك مع العصور والأزمان، حتى ولو كان هذا التغيير والتجديد نحو الأدنى والأسوأ، فهي ترتدي حين يبلى إهابها إهاب زمانها، وتتلون حين يحول لونها بلون عصرها، وترتق ما يتهرأ من فكرها بمزع من فكر أمم غيرها، وربما انسلخت تماماً عن كلّ ما يمتّ إلى شخصيتها الأولى بسبب، وحين ننظر اليوم إلى أمتنا بمنظار عصر الرسالة الأول، نراها وكأنها ليست أمتنا التي عرفناها منذ أربعة عشر قرناً في تقواها وإيمانها. وفي يوم القيامة حين يرى الرسول ﷺ أقواماً من أمته يساقون إلى النار، يستغيث برب

العالمين قائلاً: « يارب أُصَيْحابى ». فيأتيه الخطاب : « إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك» (١٣) أو كما قال.

ومن أجل ألاّ تضيع الأمة وتتلاشى في الأمم الأخرى، ورد في الحديث: «إن الله تعالى يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها» (١٤) أو كما قال ﷺ.

وبالفعل فقد كانت الأمة وما زالت تشهد رجال فكر وأقطاب إيمان يتوالون عصراً بعد عصر لإنقاذ فكرها الإيماني وبعث نور الحياة فيه كلما أوشك في الانطفاء.

ورغم تقادم العهد بين شخصية الأمة اليوم وبين عصرها الإيماني الأول، إلاّ أنّ روحها ورغم آلامه وجراحه فإنه ما زال يُسْمَعُ نشيج أشواقه، وأزيز حنينه إلى تلك القمة الإيمانية الرفيعة التي كان قد استُدرجَ للهبوط منها، وما زال قادة الفكر والإيمان عندنا يفتشون عن أفضل السبل لإنقاذه من عذاب هذا الهبوط المخيف. والارتفاع به من جديد إلى تلك القمة التي ما كان ينبغي له أن يهبط منها أبداً مهما نالت منه القرون والأزمان، لأنّ القرآن الكريم يحذرنا من الوقوع في الفخ نفسه الذي وقع فيه أهل الكتاب من قبلنا حين طال عليهم الأمد، وبَعُدَ الزمن بينهم وبين إيمانهم الأول فقست قلوبهم وغدوا في عداد الفاسقين: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ

فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦) .

(٨)

و «النورسي» في دعوته إلى الله تعالى، لا يني يذكّر المسلم بأنه بناء الله الشامخ، ومصنوعه المتقن، ومخلوقه المعجز، فعظمة الإنسان آتية من عظمة صانعه، وما ينطوي عليه من قدرة وإرادة وعلم وحكمة إنما هي بعض رشحات من قدرة القدير، وإرادة المريد، وعلم العليم، وحكمة الحكيم سبحانه وتعالى.

وقد نبّه الإنسان إلى مكانته الخطيرة في هذا الوجود ، وإلى منزلته العظمى من الكون وكشف عن حقيقة مهماته التي غابت عن كثير من العلماء وأقطاب الإيمان وفلاسفتهم، فمعرفة «الإنسان» بماهيته وأهميته الوجودية والكونية تحجزه عن السقوط في مهاوي الإنكار والجحود، وتدفع به باتجاه السموّ الإيماني والمعرفي، وتنادي به أنْ ائْتِ طوعاً أو كرهاً إلى صانعك وخالقك، فما أسهل ما يُقادُ الإنسانُ إلى الله تعالى بهذا الزمام الكوني والوجودي، وإليك ما يقوله «النورسي» في معرض بيانه لأهمية الإنسان ومهماته الكونية:

«إنّ جلوة من تجليات القيومية على الكون، وشعاعاً من نورها مثلما يعمُّ الكون بمظاهر «الواحدية والجلال» فإنه يبرز على هذا الإنسان ـ الذي يمثل محور الكون وقطبه وثمرته الشاعرة ـ مظاهر الأحدية والجمال»، وهذا يعني:

أنّ الكائنات التي هي قائمة بسرّ القيومية فهي تقوم أيضاً ـ من

جهة ـ بالإنسان الذي يمثل أكمل مظهر من مظاهر تجلي اسم «القيوم»، أي: إن القيومية تتجلى في الإنسان تجلياً يجعل منه عموداً سانداً للكائنات جميعاً، بمعنى أن معظم الحكم الظاهرة في الكائنات وأغلب مصالحها وغاياتها تتوجه إلى الإنسان.

نعم يصح أن يقال: إنّ «الحي القيوم» سبحانه قد أراد وجود الإنسان في هذا الكون، فخلق الكون لأجله، وذلك لأن الإنسان يمكنه أن يدرك جميع الأسماء الإلهية الحسنى ويتذوقها بما أودع الله فيه من مزايا وخصائص جامعة (١٥) .

ثم يمضي قائلاً: «وهكذا جعل «الحي القيوم» سبحانه الإنسان مركزاً للكون ومحوراً له. بل سخر الكون له فمدّ أمامه سفرة عظيمة عظم الكون لتتلذّذ أنواع معداته المادية والمعنوية»(١٦) .

والإنسان ظاهراً وباطناً ما هو إلاّ مرآة صقيلة تعكس ما ينسكب عليها من أنوار الكمالات والصفات الإلهية، «لأن الإنسان بمثابة فهرس مصغر للكون كله ـ بما يملك من صفات جامعة ـ وكأنه مثاله المصغر، لذا فتجليات الأسماء الإلهية في الكون عامة نراها تتجلى في الإنسان بمقياس مصغر» (١٧) ، والإنسان كذلك : «وحدة قياس أيضاً لمعرفة حقائق الكون هذا، وفهرس له ومقياس وميزان. . . فمثلاً: إنّ الدليل القاطع على وجود اللوح المحفوظ في الكون يتمثل في نموذجه المصغر وهو «القوة الحافظة» لدى الإنسان، والدليل القاطع على وجود عالم المثال نلمسه في نموذجه المصغر وهو «قوة الخيال»

لدى الإنسان. . . وهكذا يكون الإنسان مقياساً مصغراً يظهر عياناً الحقائق الإيمانية في الكون بدرجة الشهود» [١٨].

(٩)

فالإنسان القرآني كما يعرفه «النورسي»:

«محور الكون وقطبه وثمرته الشاعرة ـ وهو العمود الذي تستند إليه الكائنات ـ إنّ الكون قد خلق من أجله ـ فهرس مصغر لكتاب الكون».

فأي مفكر في الغرب أو الشرق عرف الإنسان هذه المعرفة، وارتقى به هذا الارتقاء، وعلا بشأنه هذا العلو. ونبّه إلى عظم المنزلة التي أنزله الله تعالى إياها في كونه وبين كائناته ؟!

وأيّ إنسان يعرف هذه الحقيقة عن نفسه ولا يغمره شعور بالامتلاء والقوة والانتشاء، ولا يخرّ ساجداً على أعتاب الحضرة الإلهية شكراً وامتناناً ؟!

وأيّ إنسان يحيا هذه الحقيقة فكراً وسلوكاً ولا يحس بجدية وجْوده على هذه الأرض، وبأنه لم يُخْلَقْ عبثاً، ولم يُخْلَق له الكون اعتباطاً ؟!

وأيّ إنسانِ يستقرئ هذا الكرم الإلهي ولا يستحي من معصيته واقتراف ما لا يرضاه من القول أو العمل؟!

وأي إنسان يستشعر علو المنزلة التي رفعه الله إليها ولا يستحي من مجافاته والتنكر له والابتعاد عنه ؟!

فتحريك النازع الكوني في أعماق الإنسان، وحفز هاجسه إلى جوانب العظمة والقداسة فيه، وتذكيره بأنه موضع نظر الخالق، والمعني بخطابه، وأنه مقصود إرادته، ومصنوع قدرته، هو أسلوب «النورسي» وطريقه في الدعوة إلى الله تعالى، وكأنه يريد أن يوحي للإنسان بأنه ليس ذلك الحيوان الناطق الذي له في الحيوانية قدم سبق كما يراد إيهامه، لتبرير كل هبوط أخلاقي وسلوكي يمكن أن يتردى فيه. فالنورسي كما يبدو للناظر في كتاباته لم يكن ينوي أن يكون واعظاً متحمساً يلمس بقلمه قشرة النفس الإنسانية، ويعالج ما يطفو فوقها من سلوكيات بحماس قد يجدي أحياناً إلاّ أنه لا يجدي في كثير من الأحيان في هذا العصر الذي لم يعد أحد يلقي بالاً لما يقال ما لم يكن هذا المقول قادراً على إحداث خرق كبير في الذهن يعمل على تغيير المرء من حال إلى حال مهما تكن هذه الحال، لذلك لم يقف «النورسي» أبداً على مشارف النفس الإنسانية لينظر إليها من بعيد، بل نفذ إلى داخلها، وأمسك بناصيتها، وهزّ أعماقها هزاً قوياً لتستيقظ على صوت الله في داخلها: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١)

* * *

الهوامش

(١ ـ ٣) تهذيب سيرة ابن هشام ص٤٥ ـ ٤٧.

(٤) انظر: المكتوب الثاني والعشرين من المكتوبات ص ٣٤٣.

(٥) إحياء علوم الدين (الإملاء في إشكالات الإحياء) - المجلد الخامس ص٤١- دار المعرفة/ بيروت.

(٦) وهذه الحكاية مشهورة عن الفقيه الإمام ابن تيمية . انظر : أعلام الموقعين ٣/ ٥ .

(٧) حياة سعيد النورسي ص٢٤٩-٢٥٠.

(٨) البخارى [٢٩٤٢] ومسلم [٢٤٠٦/ ٣٤] .

(٩) مسلم [١٦٩٥/٢٣] .

(١٠) انظر: تفسير سورة «العصر» في «تنوير الأذهان» للشيخ إسماعيل حقي البروسوي.

(١١) أحمد في مسنده ٢/٣٥٩.

(١٢) المسألة الرابعة من المكتوب السادس والعشرين ص٤٢٧- ٤٢٨/ المكتوبات.

(١٣) البخارى [٣٣٤٩] ومسلم [٤٠٠ / ٥٣] .

(١٤) أبو داود في سننه [٤٢١١] والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٢٢ .

(١٥ ـ ١٨) انظر: «اللمعة الثلاثين» من اللمعات ص٥٩٣ ـ ٥٩٦.

الإصلاح والتغيير بين بطولة الأفراد وسعى الشعوب

أديب إبراهيم الدباغ

(١)

في تقديمه لكتاب «هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس» للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، يقول الدكتور طه جابر في ص٤، ٥ من المقدمة ما يأتي:

«وقد برزت فكرة «المخلص» أكثر ما برزت لدى النصارى، حيث اعتُبِرَ السيد المسيح عليه السلام هو المنقذ وهو المخلص، وهو المصلح، ولكن بمفهوم غيبي وفيما يتعلق بأمور الآخرة فقط.

ولقد استطاعت هذه الفكرة أن تَتَسلَّلَ بشكل أو بآخر إلى «العقل المسلم» ليكون في كل شأنه ممن ينتظرون مخلصاً وينتظرون فرداً منقذاً أوكلت إليه العناية هذه المهمة، وأسند الخالق إليه هذا الواجب، فكانت فكرة «المهدي» التي شاعت وانتشرت وادّعاها الكثيرون حتى بلغ عدد مدعي المهدوية في الإسلام حتى عصرنا هذا ما يزيد عن الخمسين مهدياً مستغلين الأحاديث والآثار التي وردت في هذا الموضوع» .

والدكتور جابر يشير إلى أنّ مدعي المهدوية يستغلون الأحاديث والآثار المشيرة إليه. وهذا يعني أن فكرة «المهدي» لم تتسلّل إلى العقل المسلم من الفكر النصراني، بل لها في فكرنا الإسلامي أحاديث وإشارات. ثم إن «المخلص» عند النصارى، أو «الفادي» كما يسمونه أحياناً ليس كالمخلص عندنا، فالفرق كبير بينهما ولا أظن الدكتور جابر يخفى عليه هذا الفرق. وحتى «المهدي. . . فهو ليس مخلصاً بالمعنى النصراني، أي لا يفتدينا بنفسه من ذنوبنا وآثامنا، بل هو مصلح لشؤون الدنيا والدين وليس له علاقة بحياتنا الأخروية.

فأحاديث «المهدي» عند الترمذي وأبي داود وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبي يعلى الموصلي وأسندوها إلى جماعة من الصحابة.

قال الشوكاني في التوضيح: «والأحاديث الواردة في «المهدي» التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار المصرحة بـ «المهدي» فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك».

وهل صحيح أن المسلم ـ وتحت إيحاءات فكرة المهدي ـ ينتظر في كل شأنه منقذاً فرداً فلا يتحرك ولا يبذل جهداً من أجل التغيير والإصلاح منتظراً مَنْ يقدم له هذا التغيير والإصلاح على طبق من

الورد؟ وإذا كان الأمر كذلك فأين نذهب بجملة كبيرة من حركات الإصلاح منذ بداية هذا القرن وحتى هذا اليوم؟!

(٢)

ويمضى الدكتور طه جابر يقول في ص٨ من مقدمته : « إن فكرة البطل الفرد والتركيز على أن الإصلاح إنما يتمّ من خلال الأفراد هي بحد ذاتها فكرة خاطئة، وإذا كان لهذه الفكرة أن تكون صحيحة لدى أمم أخرى خاصة تلك التي سبقت قيام ووجود وتحقق الأمة الإسلامية،فإن هذه الفكرة لا ينبغي أن تسود وأن تجد لها رواجاً في إطار هذه الأمة المسلمة».

والبطل لا يمنعه زمن من زمن، ولا مكان من مكان. ولا أمة سابقة أو أمة لاحقة ، فهو حين يأتي لا يطلب من أمته جواز مرور لكي يأتي، ولا يستأذن الزمن ليمنحه موافقته على ممارسة فعله البطولي.

وشيء آخر: مَنْ قال: إن ظهور «البطل» في الأمة يعني إنكاره لفضلها، واستعلاءه عليها، ومَنْ قال: إن البطل يهبط من السماء أو تنشق عنه الأرض فجأة ليباشر عملية الإصلاح والتغيير بين أناس غير مستعدين فكرياً ونفسياً لهذا الإصلاح والتغيير، وكيف نتصور مصلحاً لا يرتبط بفكر بيئته بسبب من الأسباب، وبتصور هذه البيئة لعملية التغيير والإصلاح، ولكي ينجح البطل في أداء رسالته ينبغي أن يكون

مستوعباً لفكر الأمة ولتراثها الروحي.

وإذا كانت فكرة البطل صحيحة في أمة سابقة لأمتنا فلماذا لا تصلح أن تكون حافز تحريك عندنا كذلك بنوع من الخصوصية التي تتميز بها أمتنا عن بقية الأمم السابقة واللاحقة.

ويقول الدكتور طه جابر في ص ١٠، ١١ من المقدمة:

«ولقد بلغ من إعجاب الناس بصلاح الدين أن نُسِبَ إليه شخصياً تطهير المسجد الأقصى باعتباره البطل الذي على يديه تمّ ذلك، ونسي أو لم يبرز بشكل مناسب دور من سبقوه أو عملوا معه وآزروه».

وإعجاب الناس بصلاح الدين له ما يبرره، فالرجل هو الذي «ارتبط باسمه تحرير القدس من الصليبيين والانتصار عليهم واسترداد الحرم القدسي من أيديهم ونسب إليه الكثير من الفضل في دحرهم وهزيمتهم» فإن لم يُعْجَبْ الناس برجل هذا شأنه فبمن يعجبون إذن؟ ومن هم هؤلاء الذين سبقوه أو عملوا معه وآزروه، فليكونوا من يكونون فإن لم يذكرهم التاريخ أو يعرفهم فهم معروفون عند الله تعالى لا يظلمهم أجراً ولا يمنعهم ثواباً. ولو ذكر المؤرخون كل الذين عاشوا في ظل البطل وعاونوه وساعدوه وآزروه لضاقت مجلدات التاريخ بهم . وأي عظيم من عظماء العالم ليس لـه مؤازرون ومعاونون وممهدون، فإغفال التاريخ أمرهم شيء مشروع لم يقل أحد بخلافه.

(٣)

ثم يمضي قائلاً: «ولذلك لابد من وضع الأمور في نصابها وبيان دور الأمة ودور الفرد في عملية الإصلاح والتغيير، لكي لا تكسل الأمة ولا تفتر ولا تتدانى ولا تتوهم أن مهمتها تنحصر في انتظار البطل الأسطوري وانتظار المصلح الفرد الذي لابد أن تأتي به العناية الإلهية يوماً من الأيام، وما علينا إلا الانتظار».

والمصلح الفرد تأتي به العناية الإلهية ولكنها لا تأتي به من خارج الأمة، وتختاره ممن يحسّون بحاجة الأمة إلى الإصلاح والتغيير ويحملون هموم أمتهم على كواهلهم، ويملكون من القدرات ما يؤهلهم لهذه المهمة الصعبة التي لا يقوى عليها إلا المتميزون القادرون والمتفوقون على ذواتهم، والمستعلون على واقع أمتهم السيئ، فالعناية الإلهية تمد يد المساعدة لأمثال هؤلاء الذين تختارهم لكي يساعدوها في رسم خارطة أقدار الأمة. فأي حدث تاريخي لكي يبرز إلى الوجود لابد له من عنصرين اثنين: العنصر الأول هو الإنسان، والعنصر الثاني هو القدر، فالحدث يصنعه الإنسان من جانبه الإنساني المنظور، ويصنعه القدر من جانبه الخفي غير المنظور كما ينص على ذلك الأستاذ «النورسي» رحمه الله.

فالتاريخ في حقيقته إنما هو أقدار إلهية خفية تتحرك من خلال الأسباب والمسبّبات، ومن خلال الإنسان مادة التاريخ الأساسي

ومحوره الذي يدور عليه. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن نطلب من الأمة أن تظل قابعة في زاوية من زوايا التاريخ منكفئة على نفسها في انتظار هذا الرجل، بل عليها أن تعمل ما وسعها العمل لكي تصنع بما تملك من دين وتاريخ وحضارة هذا الرجل وتدفع به ليقود عملية الإصلاح والتغيير، صحيح أن القدر خافٍ علينا لا نعرف ما يريد، ولكننا نعرف ما نريد ولا يقف القدر في طريق أمة مؤمنة تريد أن تحتل مكاناً مرموقاً بين الأمم، بل يبارك سعيها ويمدّها بأمداد من عنده.

وليس كل إنسان قادراً على أن يفيد من الدين والتاريخ والحضارة ليتبوأ مركزاً قيادياً في عملية الإصلاح والتغيير، بل هم النابهون الأذكياء ذوو الآذان المرهفة التي تستمع لصوت القدر من خلال أحداث الأمة، والاستجابة لهذا الصوت الآتي من أعماق تاريخ الأمة وحضارتها ودينها فيستجيبون له ويتوافقون معه ويندغمون به ليباشروا عملية الإصلاح والتغيير حتى يصبحوا هم والقدر كياناً واحداً بل يصبحون هم القدر نفسه الذي يباشر هذه العملية التجديدية في الأمة.

ولعل إلى هؤلاء النابهين المتميزين كان يشير الرسول ﷺ بقوله: «إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة» (١) والراحلة هي الناقة القوية السريعة السير وهي قلة بين الإبل، وكأنّ نسبتها لقلتها لا تتعدى الواحدة في القطيع وحديثه ﷺ: « اللهم أعزّ الإسلام بأحد

العمرين» [٢] هكذا وليس بأحد سواهما.

(٤)

ولنضرب لذلك هذا المثل:

مائة من الرجال يقفون على ساحل البحر وأيديهم على قلوبهم يصرخون ويولولون يرقبون غريقاً تتقاذفه الأمواج، وتكاد تأخذه فلا تفلته إلاّ وهو جثة هامدة، فلا يفعلون شيئاً غير الولولة والصراخ. وفجأة يخرج من بين هؤلاء رجل يلقي بنفسه إلى البحر ويصارع الموج والموت ولا يعود إلا وهو يدفع بالغريق إلى الساحل سالماً.

ماذا نسمي هذا الرجل المتميز، أليس فيه حسّ بطولي نبيل يمكن أن يعود على الأمة بأكبر النفع إذا قدّر له أن يحتل مكاناً قيادياً فيها.

ومثل آخر :

جمهور غفير على بعد أمتار قليلة من بيت تأكله النيران ,وفي غرفة من غرف البيت طفل رضيع، وكلهم يصرخون ويولولون ولا يفعلون شيئاً، وفجأة ينبري من هذا الجمهور الغفير رجل يقتحم النيران والدخان ولا يعود إلا والطفل الرضيع بين يديه سالماً من كل سوء.

أليس في هذا الرجل حسٌّ بطولي رهيف يؤهله لكي يقود ويتقدم الصفوف في أي شأن من شؤون الأمة.

(٥)

والقدر بعظمته لا يستخدم فيما يريد في العالم إلاّ أقوياء الرجال، والأبطال المتميزين، وفي أحيان كثيرة يحسّ البطل بيد القدر تدفعه إلى جهة ما دون أن يقدر على منازعتها والانفكاك منها، وإليك ما يقوله «ناپليون» بهذا الخصوص:

«إني شاعر بأني مَسُوقٌ إلى غرض أجهله، لكني ما إنْ أبلغ هذا الغرض، وما إنْ ينتفي كل توجيه مفروض عليّ حتى يصبح في مكنة ذرة واحدة أن ترديني، فإلى أن يقع ذلك لن يكون في قدرة أية قوة بشرية أن تفعلِ بي شيئاً. إن أيامي معدودة»[٣].

ويقول كذلك في واحدة من كبرى حروبه: «إنّ هذه الحرب ستنشب برغم القيصر ورغمي ورغم مصالح إمبراطوريتينا، إنّ هذه الحرب إن وقعتْ لتكونَنّ من عمل الأقدار»[٤].

(٦)

ويقول الدكتور طه جابر في المقدمة المذكورة:

«لكن عملية تحرير القدس ودحر الصليبيين، ووضع حد لصراع دام ما يقرب من مائتي عام لم يكن وليد بطولة فردية. ولا وليد عمل خارق للعادة، لكنه كان يمثل الخاتمة والنهاية والنتيجة المقدرة لعوامل التجديد».

إن تحرير القدس ووضع حد لصراع دام ما يقرب من مئتي عام..

إذا لم يكن هذا الذي يقوله الدكتور جابر بطولة فردية وعملاً خارقا، فما هي يا ترى البطولة إذن؟

وما هو العمل الخارق، وهل اختفت البطولة من العالم؟ واختفى العمل الخارق من الدنيا؟ فأصبح كل شيء عادياً مألوفاً مكروراً لا يثير إعجاب أحد، ثم إن عوامل التجديد التي يعزو إليها الدكتور جابر الفضل فيما فعله صلاح الدين كانت قد تركت بصماتها على جيل صلاح الدين كله، فلماذا تلهب فيه عوامل التجديد - من دون الخلق كلهم - شرارة البطولة إن لم يكن هو بالأساس رجلاً غير عادي في الرجال، وإن لم يكن مفعماً بروح البطولة والإقدام قبل عوامل التجديد هذه وبعدها، ولماذا لم تنتج عوامل التجديد هذه «صلاح الدين» آخر وبقي هو صورة فريدة من البطولة لم يستنسخ عليها أحد صورة أخرى؟

وهل المنهج العقلاني في كتابة التاريخ يفرض علينا أن نتناول أشدّ مفاصل تاريخنا سخونةً بعقل بارد وحسّ هامد، وكأنّ صلاح الدين لا يعنينا الا كما يعنينا أي رجل تاريخ غريب عنا، فمن حَمَّل «غورو» في صدره أحقاد أوروبة وهو يرفس قبره بقدمه في دمشق ويقول: قم ياصلاح الدين وانظر! الآن فقط انتهت الحروب الصليبية. من يكون هذا شأنه ليس من الإنصاف أن نتحدث عنه هذا الحديث البارد

وكأن الذي فعله بإمكان أي أحد غيره أن يفعله.

(٧)

ألم يكن صلاح الدين بعمله الجبار هذا يحمل معنىً من معاني المهدي ويؤدي واحدةً من أعظم مهماته كما يراها باطن عقل الأمة وحافظة تراثها، وهل «المهدي» إلى جانب ما تصفه به الآثار الدينية إلا رمزاً من رموز البطولة التي لا ينبغي لعصر من العصور أن يخلو منها، وحافزاً لعِرق البطولة في أفراد الأمة لكي لا تنضب ينابيع البطولة فيها وهي تستذكر هذا الرمز وتجعله شاخصاً أمام عينيها في كل عصر وأوان ؟!

والمهدي شأنه شأن أي مصلح من مصلحي العالم لا يقوى على الإصلاح ما لم يرفده ويسنده تيار إيماني قوي يستطيع من خلاله أن يباشر عملية الإصلاح والتغيير، وكذلك أى «دجّال» لا يستطيع أن يؤدي عمله في الهدم والتخريب ما لم يكن معه تيار قوي من الكفر والنفاق.

ويحسن بنا أن نستأنس برأى «النورسي» في «المهدي» و «الدجال» الذي هو واحد من ألمع آرائه، يقول رحمه الله:

«إنّ كل وقت وكل عصر بحاجة إلى «معنى» المهدي، الذي يكون أساساً للقوة المعنوية، وخلاصاً من اليأس، فيلزم أن يكون لكل عصر نصيب من هذا المعنى، وكذلك يجب أن يكون كل الناس في كل

عصر متيقظين وحذرين من شخصيات شريرة تكون على رأس النفاق، وتقود تياراً عظيماً من الشر، وذلك لئلاّ يرتخي عنان النفس بالتسيب وعدم المبالاة. فلو كانت أوقات ظهور المهدي والدجال وأمثالهما من الأشخاص معينة لضاعت مصلحة الإرشاد والتوجيه» إلى أن يقول:

«. . .أو أنهم فسروا تلك الأحاديث بأن الآثار العظيمة التي تمثل الشخصية المعنوية لأولئك الأشخاص أو تقوم بها جماعاتهم، تصوّروها ناشئةً من شخصيتهم الذاتية الفردية، مما أدى إلى أن يُفهم أن هؤلاء الأشخاص سيظهرون ظهوراً خارقاً للعادة ، فيعرفهم الجميع. والحال أن هؤلاء الأشخاص أى «الدجال والمهدي» لا يُعرَفون من قبل كثير من الناس عند ظهورهم، بل لا يعرف الدجال الرهيب نفسه أنه دجال بادئ الأمر بل يعرفهم من ينظر إليهم بنور الإيمان النافذ إلى الأعماق»[٥] .

والنورسي يقول: «إن عصرنا عصر الجماعات، وإن الفرد مهما أوتي من دهاء ولم يكن ممثلاً لجماعة عظيمة ومعبراً عن شخصيتها فإنه مغلوب أمام قوة الشخصية المعنوية للجماعة المناوئة له»[٦] .

وأنا ـ بكل قصوري وعجزي ـ أقول هذا القول ، ويقوله الدكتور جابر ، وهو ما حاول الدكتور الكيلاني أن يقوله من خلال كتابه، ولكن دعونا نتساءل جميعاً : أليست البطولة بأي شكل كانت، وبأي لون تلونت، سواء كانت بطولة أذهان، أو بطولة سواعد، هي التي

تستقطب الجماعة وتجعلها تدور حولها، وبها ينتظم صفها، وخلفها تتراص صفوفها؟ وأليس في سواد الجماعة أفراد متميزون ومتفردون في شخصياتهم؟ وأليس في التميز والتفرد ملمح من ملامح العبقرية. أو لا يمكن أن يَنْبُغَ من هؤلاء المتميزين والمتفردين واحد أكثر تميزاً وتفرداً، فيطغى بشخصيته على الجماعة كلها فيتبوأ مركزاً قيادياً فيها؟!

فإذا كانت «بلى» هي الجواب على كل هذه الأسئلة انحلت العقدة، وزال الإشكال، ولم يعد أحد يجادل في كون «العبقرية» تفرض نفسها على الجماعات في نطاقها الضيق، وعلى الأمة في النطاق الأوسع والأعظم، ولم نعد بحاجة إلى أن نجهد أنفسنا لكي نبرهن أن الأمة هي التي تنجب عباقرتها، وأن العباقرة بالمقابل ينقلون الأمة من حالها الأدنى إلى حالها الأعلى، ولم نعد بحاجة كذلك إلى المماراة في كون الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة؟!

وفهم تاريخ أمة من الأمم أو شعب من الشعوب من خلال تاريخ أى عظيم من عظمائها في أية حقبة تاريخية من حقب تاريخها ليس مما يوجب لوماً، وأبداً لا يفهم منه أنه عملية مقصودة يراد من ورائها إغفال دور الأمة والحطّ من قيمته. فإذا كان الكون يخفي أعظم أسراره وطاقاته في أصغر ذراته، فلماذا لا يكون هذه شأن الأمة مع عظمائها، فالأمة تختزل نفسها في بطل من أبطالها، وتخفي بطولتها في طوايا بطولته، وأعظم قدراتها في ثنايا قدراته. أليست البشرية

مختزلة في فرد من أفرادها، فكذلك الأمة قد تكون مختزلة في بطل من أبطالها، وبناء على هذا لا يوجد ما يبرر هذا التقسيم في مناهج كتابة التاريخ بين منهج فردي، وآخر أممي، ولا أحسب كاتباً للتاريخ وأيّ منهج اتبع إلا وهو مضطر للعودة إلى الأمة مرة، وإلى عظمائها مرة أخرى ليلمّ بالصدق التاريخي المطلوب.

(٨)

وفي معرض حديثه عن مدرسة «الشيخ عبدالقادر الكيلاني» الفكرية والروحية وأثرها في جيل «صلاح الدين» يورد الدكتور الكيلاني كلاماً عظيماً للشيخ عبدالقادر الكيلاني ينقله من كتاب «فتاوى ابن تيمية» وهو الآتي:

«إنّ كثيراً من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلاّ أنا، وصلتُ إليه وفتح لي منه روزنة «نافذة» فأولجت فيها، ونازعتُ أقدار الحق بالحق للحق، فالرجل هو المنازع للقدر لا الموافق له» انتهى كلام الشيخ.

وهذا الكلام جدير بالوقوف عنده طويلاً، ولا أدري لماذا لم يفعل ذلك الدكتور الكيلاني، فمرّ عليه مرور الكرام. ومن دون أن يزيده شرحاً وتوضيحاً. ومن حق هذا الكلام العظيم أن يجد صدىً واسعاً في ضمائر المسلمين وعقولهم، وألاّ يغيب معناه عن بالهم أبداً،

وأحسب أن لو جمعنا كلّ كلام الشيخ وأشعلنا فيه النار، ولم يبق من كلامه إلا هذا الكلام لكان كافياً في الإبانة عن عظمته وعن عمق فهمه عن الله تعالى، وعن سعة إدراكه لمعاني القضاء والقدر، وعن خصب روحه، وحدة ذهنه، وقدرته الفذّة على النفاذ إلى جوهر الدين وسرّ أسراره وهو القدر.

وكلام الشيخ هذا ليس بالتأكيد شطحة صوفي، ولا هو زلة قلم أديب أو متأدب، ولا هو كلام ألقاه صاحبه على عواهنه دون إدراك لخطورة معناه، وعظمة ما يمكن أن يحدث من تغيير جوهري في نظر المسلم وفهمه للقضاء والقدر، وهو كلام أحسب لو فهمه المسلمون على حقيقته وعملوا بمقتضاه أن يغير الكثير من أحوالهم البائسة، وأن يغدو حالهم غير هذا الحال.

فبماذا ينازع المسلم أقدار الحق؟ وكيف؟ ولماذا؟ إنه ينازعها بما يملك من حق الحياة وحق الإيمان والإسلام، ولماذا ينازعها ولا يستسلم لها؟ ينازعها من أجل «حق» غائب أو مستور يريد له الحضور والظهور. فمنازعة القدر هو كذلك من القدر.

وحين أبى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخول الشام للذي فيها من الطاعون، وقيل له: «أفرار من قدر الله؟» كان جوابه: «نعم أفرّ من قدر الله إلى قدر الله» (٧). فالفرار من القدر هو نوع من أنواع

منازعة القدر، وهو كذلك من القدر .

ومن دعائه ﷺ: «... وأعوذ بك منك...» (٨) فهو ﷺ يستعيذ بقدر الله من قدر الله.

وفي الأثر: تصعد «الصدقة» من صدقات المسلم فيقابلها في الطريق القدر نازلاً، فيلتقيان ويعتلجان إلى يوم القيامة (٩) .

فإرادة المسلم قوة من قوى الحق، وطاقة حية من طاقات روحه تدفع به في اتجاه التغيير والإصلاح، في نطاق الحق ومن أجل الحق.

والمسلم ينظر إلى «القدر» كصديق، يحاوره ويراجعه كما يراجع الصديق صديقه فيما لم يفهمه عنه، ولم يدرك مبتغاه منه، لا كأعداء القدر الذين يرونه عدواً مصلت السيف لا يدرون متى يحزّ رقابهم.

ولعلّ أصعب أحوال الإنسان عليه هو حين يصطرع عليه حقّان أو قدران، فهو يكابد من هذا الاصطراع آلاماً مبرحة. وهل حياة الإنسان برمتها غير حصيلة هذا الاصطراع بين أقداره. وأشدّها صعوبة هي أحواله عند الاحتضار، فحق الحياة ينازع حق الموت في نفسه، «فالحياة حق، والموت حق » يتنازعان حقيهما في كيان الإنسان، فيعتلجان زمناً يطول أو يقصر حتى يتغلب أحد الحقين، وربما لهذا السبب يقال في المحتضر : إنه ينازع ، أي ينازع قدر الموت بقدر الحياة.

(٩)

فمنازعة الأقدار بالأقدار في مكنة الإنسان بما يملكه من أمانة «الاختيار» وحرية الإرادة، هذه الأمانة العظيمة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وحملها الإنسان، وبهذه الأمانة يتعلق الثواب والعقاب.

ولكن كيفية التوفيق بين «القدر» والجزء الاختياري عند الإنسان خافية علينا كما يقول «النورسي» رحمه الله. «ولكن عدم علمنا بكيفية التوفيق لا يدل على عدم وجوده»[١٠]. ويكاد يتفق «النورسي» مع الشيخ الكيلاني حين يقول: «إن الجزء الاختياري لا ينافي القدر، بل القدر يؤيد الجزء الاختياري؛ لأن القدر نوع من العلم الإلهي. وقد تعلق العلم الإلهي باختيارنا، ولهذا يؤيد الاختيار ولا يبطله»[١١].

ويمضي «النورسي» قائلاً: «القدر نوع من العلم، والعلم تابع للمعلوم، أي على أية كيفية يكون المعلوم يحيط به العلم ويتعلق به، فلا يكون المعلوم تابعاً للعلم، أي أنّ دساتير العلم ليست أساساً لإدارة المعلوم من حيث الوجود الخارجي، لأن ذات المعلوم وجوده الخارجي ينظر إلى الإرادة ويستند إلى القدرة»[١٢].

فلا جبرية قدرية إذن تحملنا على أن نفعل ما تريد، بل نحن نريد

ونختار، وتاريخنا نحن نصنعه، وما نريده نحن «معلوم» والقدر «علم» يحيط بالمعلوم غير أنه لا يفرضه، فكيفما نكن يكن قدرنا، وكيفما نكن شعوباً وأمماً يكن أبطالنا، وكيفما يكن أبطالنا تكن أممنا وشعوبنا، فسلام على «صلاح الدين» بطلاً في أبطال أمتنا، وسلام على جيل «صلاح الدين» في أجيال أمتنا.

* * *

الهوامش

(١) البخاري [٦٤٩٨] ، ومسلم [٢٥٤٧/ ٢٣٢] .

(٢) الترمذي [٣٦٨١] ، وابن سعد في الطبقات ٣ / ٢٠٢ .

(٣) نابليون لأميل لودفيج/ج٢ص٤ ترجمة محمود إبراهيم الدسوقي.

(٤) المصدر نفسه ص١٦ .

(٥) الكلمة الرابعة والعشرون من «الكلمات» للنورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

(٦) ملخص من القسم السابع من المكتوب «التاسع والعشرين» من المكتوبات ترجمة إحسان قاسم الصالحي.

(٧) البخاري [٥٧٢٩] ، ومسلم [٢٢١٩ / ٩٨] .

(٨) مسلم [٤٨٦ / ٢٢٢] .

(٩) انظر : كتاب الدعاء للطبراني [٣٣] ، ومجمع الزوائد [٤٦٠٣ ـ ٤٦٠٦] .

(١٠ ـ ١٢) رسالة القدر / الكلمة السادسة والعشرون/ الكلمات ص٥٤٥ .

النورسي... وخلود الإنسان

(١)

في دواخلنا ـ نحن البشر ـ شيء ما لا نعرف ما هو، ولا نعلم كنهه، أو نقدر على سبر غوره، إلاّ أنه يشيع فينا إحساساً حاداً بالوجود الذي يتلبسنا، وبالحياة التي تسكننا، وينزع بنا نزوعاً قوياً إلى الخلود ومقاومة الموت، ويدفعنا إلى تعشق الأبدية ، ويترعنا بالرغبة في الامتداد عبر الزمن إلى ما لا نهاية.. ويجنح بخيالنا فوق محدوديات الزمان والمكان.

وهذا الذي يندّ عن فهمنا، وتتقاصر عن إدراك كنهه عقولنا، هو الفطرة التي فطرت عليها النفوس البشرية.

وبين هذه الفطرة النقية الطاهرة وبين الخلود الأخروي ارتباط كما هو الارتباط بين الأسباب والنتائج، فلكون الفطرة تريد هذا الخلود وتسعى إليه، وتتضرع إلى الله تعالى طالبةً إياه بلسان حالها، أوجد الله تعالى الأخرة، وأوجد الخلود فيها.. والعكس صحيح كذلك. أي لأن الخلود الأخروي موجود ابتداءً. فُطِرَ الإنسان على الرغبة به. والشوق إليه؛ لأن الإنسان ـ حدساً وعقلاً ـ لا يرغب بغير موجود، ولا يشتاق إلى عدم معدوم.

و«النورسي» رحمه الله تعالى ، يتناول هذه المسألة المهمة والخطيرة من زوايا مختلفة، وجوانب متعددة، فتارة يرى أن الفطرة لا تكذب،

ولكونها تريد الخلود فالخلود إذن موجود، وتارة أخرى يرى أن ما تريده الفطرة لم يكن لتريده لو لم يغرس الله سبحانه وتعالى فيها هذه الإرادة، فهي إذن تريد ما يريده الله لها من الخلود والأبد.

ومن أجل هذا سعى «النورسي» في معظم رسائله إلى تنقية «الفطرة» من أكدار هذا الزمن الجحود، والعمل على إزاحة ما فوقها من ركامات كفرانه، والهتاف بصوتها النقي الموؤد لكي يَرِنَّ من جديد في مسامع الإنسان وفي أرجاء النفس والوجدان.

(٢)

إنّ قضية «الموت» وما وراء «الموت» أى: إلى أين يذهب الإنسان بعد الموت؟ وكيف؟ ولماذا؟ هي من أهم القضايا التي شغلت أذهان البشر، وقد اختلفوا فيها بين مؤمن وملحد، ملحد مطموس الفطرة يرى الموت هو النهاية الطبيعية لحياته ووجوده. ومؤمن يرى «الموت» معبراً إلى وجود جديد، وحياة جديدة. ملحد يرى صيرورته في خاتمة المطاف إلى التراب ولا شيء غير التراب. ومؤمن يهتف بدافع من إيمان فطرته:

ليأخذْ جسدي مَنْ يشاء وما يشاء. . ليأكُلْهُ التراب. . . ولتتغذَ عليه الأرض فإنه ليس « أنا ». . فـ « أنا » وجود خالد لا يموت، أعطانيه واجب الوجود. ومنحني إياه مانح الحياة، والكريم المعطاء إذا أعطى لا يستردّ عطاءه ، وإذا وهب فلا يستردّ ما وهب.

و «النورسي» يشير إلى هذا قائلاً:

«فبالحدس القطعي بل بالمشاهدة، نرى أنّ الجسد قائم بالروح، أى ليست الروح قائمة بالجسد، وإنما الروح قائمة ومسيطرة بنفسها. ومن ثمّة فتفرُق الجسد وتبَعْثُرُهُ بأي شكل من الأشكال وتجمعه لا يضرّ باستقلالية الروح، ولا يخلُّ بها أصلاً، فالجسد عِشُّ الروح ومسكنها وليس بردائها، وإنما رداء الروح غلاف لطيف وبدن مثالي ثابت إلى حد ما، ومتناسب بلطافته معها، لذا لا تتعرى الروح تماماً في حالة الموت بل تخرج من عشّها لابسة بدنها المثالي، وأرديتها الخاصة بها»[1].

ويقول كذلك:

«ويأبى جوده ـ سبحانه وتعالى ـ أن يستردّ ما أعطى من نفحة الوجود إلى روح الإنسان اللائقة والمشتاقة إلى ذلك الوجود»[2].

وما بين الإيمان والإلحاد ، هذه المسافة الشاسعة جموع بشرية هائلة هي السواد الأعظم من البشر ، يتأرجحون بعقيدتهم وسلوكهم بينهما، فيقتربون تارة من هذا، وتارة من ذاك. لا لون يميزهم بين الألوان، ولا عقل يستقلون به بين العقول.

(٣)

إنّ شيئاً ما ينحدر إلينا من منابع الأبدية عنـدما نروح في استبحار فكري وروحي في الأمداء المهولة البعد من محيطات النفس والوجدان، وهذا يعني أن «الخلود» مجوهر في مناجم الروح، وأن بذرة «الأبدية» منطوية في وجدان كل إنسان، ولكن كثيراً ما يُلَبسُ

علينا ونحن نرزح تحت ثقل مظاهر الفناء التي تحيط بنا من كل جانب، حيث نرى أجمل الأشياء وأحبّها إلى نفوسنا تغادر ويطويها الموت، وتغيب عنّا وراء ستار الغيب دون أن نستطيع الإمساك بها والحيلولة بينها وبين الذهاب إلى غير رجعة، فمظاهر الموت والفناء المكرورة تجعلنا ننخدع فنحسب أن الفناء والزوال هو القانون الساري والمهيمن على كل شيء في هذا العالم، إلا أن الحقيقة غير ذلك، فما نظنه زوالاً وفناءً ما هو إلا ذهاب من حال إلى حال، وانتقال من صورة إلى أخرى، بينما بذرة الوجود قائمة في الموجود لا تحول ولا تزول في كل أحواله وصوره وانتقالاته، تنتظر الوقت المناسب لكي تتسنبل وتتشجر من جديد.

و« النورسي» يرصد هذه الظاهرة ويقدم لنا عنها التفسير الآتي:

«إن هذه الأشياء لم تخلق للفناء بل للبقاء، بل إنّ فناءها الظاهري ليس إلاّ إطلاقاً لسراحها بعدما أنهت مهامها، وكما أن الشيء يفنى من جهة إلا أنه يبقى من جهات كثيرة:

تأمل هذه الزهرة ـ وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية ـ إنها تنظر إلينا مبتسمة لفترة قصيرة ثم تختفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي تتفوه بها والتي تودع آلافاً من مثيلاتها في الآذان وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدت وظيفتها وهي إفادة المعنى.

فالزهرة أيضاً ترحل بعد أن تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية،

فكأنّ كلّ ذاكرة وكلّ بذرة بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها ومحل إدامة بقائها.

فلئن كان المصنوع وهو في أدنى مراتب الحياة، يُعامَلُ مثل هذه المعاملة للبقاء، فما بالك بالإنسان الذي هو في أسمى طبقات الحياة، والذي يملك روحاً باقية، ألا يكون مرتبطاً بالبقاء والخلود..؟! ولئن كانت صورة الذات المزهر المثمر، وقانون تركيبه ـ الشبيه جزئياً بالروح ـ باقية ومحفوظة في بذيراتها بكل انتظام في خضم التقلبات الكثيرة، أفلا يفهم من هذا كم تكون روح الإنسان باقية، وكم تكون مشدودة مع الخلود، علماً أنها قانون أمري، وذات شعور نوراني، تملك ماهية راقية وذات حياة، وذات خصائص جامعة شاملة، وقد ألبست وجوداً خارجياً...؟!»[٣].

ويقول كذلك: «إن الموت والاندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقات الربيع والصيف الجميلة ليس فناءً وإعداماً أبدياً، وإنما هو إعفاء من وظائفها بعد إكمالها وإتقانها، وتسريح منها»[٤].

ويقول: «إن الصانع السرمدي لهذا العالم الفاني له عالم غير هذا العالم، وهو عالم باقٍ خالد، ويشوق عباده إليه، ويسوقهم نحوه» [٥].

(٤)

والرغبة بالخلود والدوام هي حافز أعظم الأعمال الفكرية والوجدانية. فآمال الإنسان وأشواقه وأحلامه وخياله وفكره وآدابه وفلسفاته، وما قاله من حِكَمٍ، وتغنّى به من شعر. إنما هو تعبير عن هاجس الخلود الذي فُطِر عليه، وما أقام من هياكل وشيد من صروح، وبنى من معابد، إنما هو تعبير عن نفس الهاجس. ولو لم يتوهم لمحة من لمحات الخلود في أعماله الفكرية والإبداعية وبناه الحضارية لما كلف نفسه عناء التفكير ومشقة الإبداع، ولو لم يتوهم بعضاً من علامات الخلود والدوام فيما يحب ويهوى لما أحبّ ولما هوِيَ، ولما التذّ بعمل أو سُرَّ بشيء من أعماله، كما يشير إلى ذلك «النورسي».

فالزمان الدنيوي المحدود عاجز عن المضي مع الإنسان إلى آخر الشوط في خياله الذي لا حدود له، ومع أشواقه التي لا نهاية لها، فلا بد من زمن أخروي لا حدود له تصبّ فيه الأزمنة كلها بخيرها وشرّها، وتصبّ فيه آمال الإنسان وأحلامه وأشواقه، بخيرها وشرّها وتطويها دفاتر الأبد وسجلاته.

ولو أصغينا إلى الإنسان جيداً لسمعناه يقول بلسان توقه:

أعطني الدنيا كلّها... ضع زمامها بين يديّ ... ملّكني ناصيتها... ضعها على طبق وقدّمها على مائدة روحي... اعتصرها في كأس واجعلني أتحسّاها حتى الثمالة ! فهي لا تطفئُ ظمأ

روحي...ولا حرقة أشواقي... ولا تملأ خيالي... ولا تغذو لطائف نفسي... تندّ عنها مشاعر القلب... وهيام الخيال... وَوَلَهُ الروح... وَوَجْدُ الفؤاد... والشغف بالحرية من رقّ الأكوان... ومن قيود الزمان... وأثقال الأرض...

وإليك الآن ما يقوله «النورسي» حول هذا المعنى:

«لو قيل لقدرة التخيل في الإنسان، وهي إحدى وسائل العقل وأحد مصوريه، ستمنحُ لكِ سلطنة الدنيا وزينتها مع عمر مديد يزيد على مليون سنة، ولكن مصيرك إلى الفناء والعدم حتماً، نراها تتأوه وتتحسر..

أي إن أعظم فانٍ ـ وهو الدنيا وما فيها ـ لا يمكنه أن يشبع أصغر آلة في الإنسان وهي الخيال.

يظهر من هذا جلياً أن هذا الإنسان الذي له الاستعداد الفطري والذي له آمال تمتد إلى الأبد، وأفكار تحيط بالكون، ورغبات تنتشر في ثنايا أنواع السعادة الأبدية... هذا الإنسان إنما خُلِقَ للأبد وسيرحل إليه حتماً، فليست هذه الدنيا إلا مستضافاً مؤقتا، وصالة انتظار الآخرة»(٦) .

ويقول:

« نعم إن الذي يصغي إلى وجدانه اليقظ فإنه يسمع حتماً صوت: الأبد.. الأبد... حتى إذا ما أعطى كل ما في الكائنات لذلك الوجدان فإنه لا يسدّ حاجته إلى الأبد، وإن هذا الجذب والانجذاب

الوجداني لا يكون إلا بجذب من غاية حقيقية وبجاذب حقيقي»[٧].

(٥)

وحبُّ الجمال والانتشاء بمشاهدته والإقتراب منه ومحاولة امتلاكه والاستحواذ عليه بالفكر والحسّ والخيال، هو قضية معروفة ومشاهدة في الإنسان، حيث يمتطي خياله، ويظلّ سابحاً في ملكوت الجمال، يجوس خلاله، ويطوف بين أمدائه وهو يلاحق مغيبات الحسن في خبايا الكون والحياة والإنسان، مدفوعاً إلى ذلك بنازع فطري وبحافز روحي يودّ لو يشرب جمال العالم كله، ويطويه في حشاشته.

غير أن هذا الخيال وهو يبحث عن لمحات الجمال ويلاحقها في كل مكان يقودنا إلى تيهٍ يباب ويقف بنا في منتصف الطريق منبتين هالكين لأنه يبحث عن جمال مجازي، ويلاحق حسناً فانياً زائلاً، بينما هو مرصود لكي يتلمس لمعات الحسن الحقيقي، ويبحث عن أنوار جمال سرمدي لا يفنى ولا يزول، لذلك فسيظلُّ جائعاً لا يشبع، وظامئاً لا يروى ، لأن كل جمال يلتقيه إنما هو جمال نسبي محدود فانٍ، وفوقه جمال أبدي مطلق لا يفنى ولا يزول، هو الجمال الإلهي الأقدس، الذي كل جمال دونه إنما هو تجلٍ من تجليات نوره، كتجلي نور الشمس ـ ولا مشاحة في المثال ـ على المرايا وقطرات الماء وحَبَابِ البحر، هو ليس الشمس ولا بعضاً منها، ولكنه بسرّ النورانية والشفافية يدخل كل شيء من غير أن يحتويه شيء، ويقرب من كل شيء بينما هو بعيد عن كل شيء كما يشير إلى ذلك

النورسي رحمه الله [8].

ومعلوم بداهة أن الجمال ـ أي جمال ـ يحب أن يشهد نفسه في مراياه ومرايا الآخرين، ويودّ أن يكون موضع إعجاب واستحسان غيره. ولما كان الجمال الإلهي سرمداً وخالداً وأبديا، فهو يقتضي خلود أولئك المشتاقين وديمومتهم، فَمَنْحُ الخلود للمؤمنين المشتاقين للجمال الإلهي هو من مقتضيات أبدية هذا الجمال وسرمديته كما يقول «النورسي» : «ولما كان الجمال والحسن خالدين سرمديين فإنهما يقتضيان خلود المشتاقين وديمومتهم، لأن الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل»[9].

(٦)

لأي شيء يحتفظ الإنسان بروحه إذن إنْ لم يجعلها سلماً للعروج إلى تلك الأكوان الغيبية ، والسموات النائية التي منها تنحدر أجمل الإلهامات والخواطر والأفكار ؟!

وأي هدف للقلب أرقى وأجمل من أن يغدو سَفينَ صاحبه إلى يَمٍّ الأبدية الجذلى التي تموج في دخيلة أنفسنا وعمق أعماقنا ؟!

ولماذا نحن مسكونون ببصيرة لمّاحة، وحدس رهيف، إذا لم نكن قادرين على رصد بعض آيات هذه الأزليات المطلاّت علينا من وراء الغيب ؟!

وماذا نصنع بهذا الحنين الفطري إلى الخلود إذا كنّا ننأى بأنفسنا عن معاناة البحث عنه، والتواصل معه عبر سبل الإيمان وأسباب

اليقين ؟!

إنّ عظمة الإيمان ترفعنا لكي نلمس ضفاف الأبدية، وحافات بحارها اللانهائية، فالإيمان جوهر الإنسان. ومن غيره يقذف بنا نهر الزمن نحو خلاء روحي مميت، فنجد أنفسنا على شفا الهلاك في الفانيات ووجداننا يصرخ ملتاعاً صرخة خليل الرحمن إبراهيم: ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ (الأنعام:٧٦) ، عندما تظاهر له الكون بإغراءاته... فلما أحسّ بطابع الفناء على وجوه الأشياء التي عرضت له ولّى مدبرا، وهتف مبتعداً: ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ أى لا أحب الفانين، ولا أريد أن أربط أسبابي بأسبابهم؛ لأنّ التعلق بالفناء فناء، والتعلق بالبقاء بقاء. كما يقول النورسي.

فالتوق إلى الأبد يعني وجود هذا الأبد، والشوق إلى الخلود يعني وجود هذا الخلود ؛ لأنّ الإنسان ـ فطرةً ـ لا يتوق إلى عدم، ولا يشتاق إلى غير موجود، وإلى هذا المعنى يشير «النورسي» قائلاً:

«فالفطرة لا تكذب أبداً، والتي فيها ما فيها من ميل شديد قطعي لا يتزحزح إلى السعادة الأخروية الخالدة تعطي للوجدان حدساً قطعياً على تحقق الحياة الأخرى والسعادة الأبدية»[١٠].

(٧)

والإنسان نفسه ـ ظاهراً وباطناً ـ غيب مهول، وعالم مجهول، ينطوي على عوالم كثيرة لم يُكشَفْ ـ رغم كل محاولات العلوم الحديثة ـ إلاّ عن النزر القليل منها، فروحه وعقله ووجدانه كون

غيبي آخر يقف قباله غيوب ما وراء الكون. وبعض مغيباته إنما هي رمز وإشارات إلى ما في عالم الغيب من مغيبات، ودليل عليه، وحين تتسع المساحات المكتشفة من غيوب الإنسان، في المستقبل القريب أو البعيد، فإننا سنحظى - بلا شك - بالمزيد من الرموز التي ترمز إلى شؤون أخروية. وصدق الشاعر حين يقول:

وتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

و«النورسي» يرى في بعض أجهزة الإنسان دليلاً على بعض حقائق العالم الآخر، فيقول: «فالحجة القاطعة على وجود اللوح المحفوظ وعالم المثال، ونموذجهما المصغر، هو ما في رأس الإنسان من قوة حافظة، وما يملك من قوة خيال، فمع أنهما لا تشغلان حجم حبة خردل، إلا أنهما تقومان بوظائفهما على أتم وجه بلا اختلاط ولا التباس، وفي انتظام كامل، وإتقان تامّ، حتى كأنهما يحتفظان بمكتبة فخمة جداً من المعلومات والوثائق، مما يثبت لنا أن تينك القوتين نموذجان «للوح المحفوظ» و «عالم المثال».. »[11].

(٨)

والإنسان رهين الخلود، محكوم به عليه، مذهوب به إليه، وسواء استسلم لقضاء الله فيه، أم تمرد عليه، وسواء آمن واتقى أم جحد وكفر... فكما جاء إلى الدنيا بغير إرادته، فإنه مطاردها كذلك إلى الآخرة بغير إرادته، فلا فكاك له عنها، ولا مصرف له إلاّ إليها، لأنها موصولة به بحبال منسوجة من خيوط روحه، فهو مشدود إليها،

وهي مشدودة إليه، ولا خلاص لأحدهما من الآخر.

ورُبَّ سائل يسأل: لماذا أُسْكِنَ الإنسان الأرض؟ ورُشِّحَ للخلافة فيها؟ ولماذ جُعِلَ افتتانه بالخير والشرّ؟ وكيف منح الاختيار بين الكفر والإيمان؟ والصلاح والفساد؟ ولماذا لم تحسم قضيته قبل أن يجرب العناء ويحتمل العنت ؟!

وللجواب على هذا السؤال نقول:

بين الإنسان والبذرة تشابه كبير، فكما أن «البذرة» تطوي أحشاءها على استعدادات شجرة كاملة، إلاّ أن هذه الشجرة لا تنبعث إلى الوجود ما لم تدفن بذرتها تحت التراب... فالإنسان كذلك ينطوي على استعدادات هائلة لم تكن لتظهر ما لم يُسْكَن الأرض، ويجرب خيرها وشرّها، ويقاسي الامتحان بين أضداد الحياة ونقائضها، وعندما تنشق بذرة الإنسان المستنبتة فوق أديم الأرض عن شجرة قوية مكينة ناضجة. فإنها تعلو في الفناء وتمتد أغصانها إلى كل مكان وكل جهة، وكأنها تريد أن تشدّ إليها العالم برمته، مما يجعل الأرض - بمحدوديتها - عاجزة عن استيعابها ومدها بماء الحياة اللازم لدوام بقائها، فتبحث فيما وراء الأكوان عن ينابيع الخلود والبقاء المتفجرة من عيون الإيمان الصافيات. ولكي يبقى الإنسان كما يريده خالقه مخلوقاً ألمعياً سامياً وضاءً، لابد أن يبذل جهداً جريئاً متواصلاً، ويمارس جهاداً عنيفاً داخل النفس، كي يبقى سالماً من كل ما يشينه ويدنس طهره.

وإلى هذا المعنى يشير« النورسي» قائلاً:

«نعم! إن دار الدنيا الضيقة هذه لا تكفي ـ كما أنها ليست ظرفاً ـ لإظهار ما لا يحدّ من الاستعدادات المندمجة في روح الإنسان وثمارها، فلابد أن يرسل هذا الإنسان إلى عالم آخر... نعم ! إن جوهر الإنسان عظيم لذا فهو رمز للأبدية ومرشح لها، وإن ماهيته عالية وراقية لذا صارت جنايته عظيمة، فلا يشبه الكائنات الأخرى. وإن نظامه دقيق ورائع، فلن تكون نهايته دون نظام. ولن يهمل ويذهب عبثاً. ولن يحكم عليه بالفناء المطلق، ويهرب إلى العدم، وإنما تفغر جهنم فاهاً في انتظاره، والجنة تبسط ذراعيها لاحتضانه...»[١٢].

(٩)

وأي إنسانٍ لا يهوي في لجج اليأس منحطماً منصع الروح، مسحوق النفس، إذا ما حيل بينه وبين الأمل في الخلود والبقاء... وأي امرئٍ يستطيع أن يهتف «ها أنذا» وهو يرى هويته الإنسانية تتهشم تحتَ مطارق الفناء والبِلى...وأي قلب لا يحترق حتى الرماد حين يرى أحلامه وأشواقه هباءً في هباء... وأي قيمة للحياة التي نحياها إذا كان مآلها الزوال والفناء... ولماذا نظل نحيا مقهورين إزاء كوالح الأيام وعذاب السنين من غير أمل بالخلاص في خاتمة المطاف... وأي جاحد لا تتحول دنياه إلى جهنم يتصاعد منها دخان العذاب قبل يوم الحساب.

وكيف لا يصير ـ بهذا الجحود ـ مثابة للوحشة المتأبدة والكآبة

الكابية ؟!

فلماذا إذن هذا الهروب من وجه الله ؟ ولماذا هذا النكوص عن معرفته؟ ولماذا هذا الصم عن الإصغاء إلى صوته والإصاخة إلى ندائه؟ ولماذا هذا العمى عن رؤية آياته في الأنفس والآفاق؟!

أليس غريباً غاية في الغرابة أن تكون تجليات القدرة الإلهية في الإنسان واحدةً من أسباب غروره وجحوده ؟!

أليس عجيباً أن يكون عمل الربوبية في بناء كيان الإنسان وإقامة صرح وجوده سبباً في تألهه وكفرانه ؟!

أليس مرعباً أن تكون دقة المصنوع وعظمة بنائه سبباً لتمرده على صانعه؟!

أليس محيراً أن تختال الصورة على مصورها، وتَتَمَنَّعَ اللوحة على رسامها؟!

أليس محزناً أن ينكر المخلوق خالقه، والكائن مكونه ؟!

أليس من الغباء توهم المرآة ما ينعكس على وجهها من صور الأشياء أنها مالكة هذه الأشياء وصاحبتها؟

فالإنسان مصنوع الله تعالى، خُلق في أحسن تقويم، وصُوِّر في أحسن تصوير، وزُوِّد بالخيال، ومُنِح الإرادة، وأُتْرِع بالحسّ والشعور، وركِّب في رأسه عقل يعقل به الأشياء، ويستولد به الأفكار، وجُعِل سميعاً بصيراً ليسمع الأصوات، ويبصر المرئيات، وأُعطِيَ الحافظة ليحفظ فيها ما يعلم، والذاكرة ليذكر ما هو في حاجة

إلى تذكره ، فهو مصنوع متقن الصنع، ومعجزة من معجزات القدرة الإلهية. . . غير أنه يغفل أحياناً عن هذا كله، فيتوهم أنه قدير بما عنده من قدرة نسبية، ومريد بما عنده من إرادة نسبية، وعليم بما عنده من علم نسبي، وسميع بسمعه النسبي، وبصير ببصره النسبي، فيتوهم وكأنّ مطلق الصفات الإلهية قد حلّت به، وآلت إليه، ومن هذا الوهم تنشأ جميع الربوبيات البشرية، ومنه انطلق فرعون قائلاً: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النازعات : ٢٤) والنمرود: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨) وبين هذين النموذجين من الربوبيات البشرية، ربوبيات دون ذلك، يمارسها الناس بدرجات متفاوتة، وعلى قدر ما يستحوذ عليهم من مراتب الوهم والظن.

(١٠)

و «النورسي» يرتقي بالإنسان، ويعلو به علواً لا نجده عند غيره من المعنيين بشؤونه. فيرى أنه ـ أي الإنسان ـ بروحه وجسمه إنما هو خلاصة ما في عالمي الغيب والشهادة ويتجلى فيه من أمورهما ما يتجلى فيهما (١٣) .

ويمضي قائلاً: «إنّ للإنسان قيمة عالية، بدليل أن السموات والأرض مسخرة لاستفادته، وكذا إنّ له أهمية عظيمة بدليل أن الله تعالى لم يخلق الإنسان للخلق، بل خلق الخلق للإنسان. وإنّ له عند خالقه لموقعاً بدليل أن الله تعالى لم يوجدْ العالمَ لذاته، بل أوجده للبشر، وأوجد البشر لعبادته، فأنتج أن الإنسان مستثنى وممتاز

لا كالحيوانات. فيليق أن يكون مظهراً لجوهرة: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨) [١٤].

ويردف قائلاً : «إنّ مَنْ هُيِّئَ جميع ما في الأرض لاستفادته وسُخِّرَتْ له الأنواع له أهمية عظيمة تشير إلى أنه النتيجة للخلقة»[١٥].

والسؤال الذي يرد على الخاطر هو : كيف يكون للإنسان هذه القيمة العالية مع كثرة شروره وآثامه؟! وهو السؤال نفسه الذي سألته الملائكة حين قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فيقول «النورسي» في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠) : «إنّ تلك الشرور والمفاسد تغتفر في جنب السرّ المودع فيه، وإنّ الله تعالى غنيٌّ عن عبادته؛ إذ له تعالى من الملائكة المسبحين والمقدسين ما لا يحصر، بل - أي نزوله إلى الأرض - لحكمة في علم علام الغيوب كانت خافية على الملائكة» [١٦].

لا بل يمضي إلى أبعد من هذا حين يقول: «إنّ البشر كالروح المنفوخ في جسد الأرض، فمتى خرج البشر خَرِبَت الأرض وماتت»[١٧].

والنورسي يشير إلى أن «الموت» الذي يخافه الإنسان كثيراً ،

ويهرب منه، ويدفعه عنه، ليس فيه ما يوجب هذا الخوف، بل هو كالحياة من معجزات القدرة الإلهية فيقول: «اعلم أن آية ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ (الملك: ٢) تدل على أن الموت ليس إعداماً وعدماً صرفا، بل تصرف وتبديل موضع، وإطلاق للروح من المحبس. . . إلى أن يقول: فحينئذٍ يكون الموت معجزة القدرة كالحياة، لا أنه عدم علّته عدم شرائط الحياة»[١٨] كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة.

(١١)

إنّ «وجود الإنسان» موجود في علم الله تعالى قبل أن يمنحه إياه، ويُتوِّجَهُ بالروح والحياة، ولأن علم الله تعالى أزلي وأبدي فمن البديهي أن يكتسب هذا الوجود ظلاً من ظلال الدوام والبقاء، وهو بهذا الانتساب الإلهي لا يمكن أن يتفكك أو يمضي لأي سبب من الأسباب في طريق «التلاشي» والوصول إلى نقطة «اللاّوجود» والانحدار نحو العدم.

فـ «وجود الإنسان» ابتداءً إنما هو خروج من دائرة «العلم» إلى دائرة «القدرة». . ووجوده انتهاءً هو خروج من دائرة «القدرة» إلى دائرة «العلم»، ثم العودة مرة أخرى إلى دائرة «القدرة» للحساب والثواب والعقاب، وهو في هذه الحالات جميعها موجود غير معدوم. ولعلّ إلى هذا الذي خلصنا إليه تشير الآية الكريمة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(الإنسان: ١) [١٩] أي لم يأت ، فهو ـ أي الإنسان ـ إما أن يكون موجوداً في «علم الله» أو

موجوداً في «قدرة الله»، ولا في شيء غيرهما والله تعالى أعلم بمراده.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾(القصص:٨٨) يقول «النورسي»:

«ثم إن العدم المطلق لا وجود له أصلاً، لوجود «العلم المحيط»، علماً أنه لا شيء خارج عن دائرة العلم الإلهي كي يمضي إليه شيء ما، والعدم الموجود ضمن دائرة «العلم» هو عدم خارجي، وهو عنوان صار ستاراً على الوجود العلمي، حتى حدا هذا ببعض العلماء المحققين التعبير عن هذه الموجودات العلمية بأنها «أعيان ثابتة» لذا فالذهاب إلى الفناء إنما هو نزعُ الأشياء لألبستها الخارجية مؤقتاً، ودخولها في وجود معنوي وعلمي أي أن «الهالكات والفانيات» تترك الوجود الخارجي وتلبس ماهياتُها وجوداً معنوياً ، وتخرج من دائرة «القدرة». . . وتدخل في دائرة «العلم»[٢٠] .

والكافر ـ كما يحكي عنه القرآن ـ حين يرى العذاب المنصبّ عليه في نار جهنم يهتف صارخاً: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ (النبأ: ٤٠) متوهماً أن التراب موات لا يحسّ بالعذاب، بينما المخلوقات الأرضية ومنها التراب هي مظاهر قدرته تعالى ورحمته وإحسانه ، فحفنة من تراب يمكن أن يُستَنْبتَ فيها كل أزهار العالم وأشجاره على اختلاف أنواعها وألوانها وطعومها، كما يقول «النورسي».

فالتراب حياة وإحياء، ومن هنا كان المؤمن أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد كما جاء في الحديث الشريف [٢١] ، لأنه أقرب ما يكون

إلى التراب الذي تتجلى فيه أسماؤه الحسنى، حتى كره بعض الفقهاء السجود على ما يحجب جبهة الساجد عن الأرض. فالتراب فيه خاصية إحياء كالماء لذا فهو يقوم مقامه في الوضوء والطهارة حين يعزّ الماء أو يختفي. فالتراب الذي يتمنى الكافر أن يكونه ليس عدماً ينجيه من العذاب كما توهم، فلا خلاص لـه مهما صار إليه من أشياء، أو تحول إليه من أحوال؛ لأنه مسجون الوجود، ولا عدم يمكن أن يتلاشى فيه ، أو يـذوب في قعره ليخـرج من شيئيته الإنسانية. ويتخلص من مسؤولية فكره وعقيدته، فالله تعالى من حيث ربوبيته «قد جعل سبحانه المخلوقات الأرضية عروشاً له، إذ جعل الهواء نوعاً من عرش لأمره وإرادته، وعنصر النور عرشاً آخر لعلمه وحكمته، والماء عرشاً آخر لإحسانه ورحمته، والتراب نوعاً من عرش لحفظه وإحيائه»(٢٢).

(١٢)

في هدوات الروح الصاحية، وفي سكينة صفاء الوجدان، يستطيع المرء - برهافة سمعه - أن يصغي إلى صريف «قلم الخلود» وهو يرسم على صفحة روحه صور الأبد، وينقش لوحات البقاء، والذين انحنت أصلاب أرواحهم تحت ثقل ما يعانون من آلام، وما يُصبّ فوقهم من عذاب، قادرون كذلك حين تتمرد أرواحهم وتعلو فوق الآلام والعذاب أن يتنسموا نسائم الرجاء الهابّة من عمق أعماق أرواحهم ووجدانهم وهي تبشر بعالم قدسي آت مترع بالعدل والحب

والرحمة. ففينا وفي دواخلنا تحسم كل قضايانا المعلقة، وفينا وفي دواخلنا حلول كل المعضلات الوجودية. والجواب على السؤال الخالد: لماذا؟ وكيف؟ وإلى أين؟ فينا وفي دواخلنا يكمن سرّ الوجود ومفتاح العالم، وطلسم الخلق والإيجاد. فنحن الوجود إذا أردنا، ونحن العدم إذا شئنا، ونحن البقاء إذا رغبنا، والفناء إذا شئنا، ونحن الجنة إذا آمنا، والنار إذا جحدنا، ونحن العذاب إذا كفرنا والنعيم إذا أسلمنا، نحن كل هذا، ومنّا وفينا شجرة الآخرة، إنْ سقيناها بماء الإيمان، ورويناها من ينابيع اليقين أثمرت لنا الجنة. وإلاّ أثمرت النار. والعياذ بالله.

يقول «النورسي» رحمه الله:

«وإنما نظرتُ مباشرةً إلى قلبي، وتحسستُ روحي... فرأيت أنه يسيطر عليّ عشق في منتهى القوة للبقاء، وتهيمن عليّ محبّة شديدة للوجود، ويتحكم فيّ شوق عظيم للحياة، مع ما يكمن فيّ من عجز لا حدّ له، وفقر لا نهاية له» (٢٣).

ثم إنّ «النورسي» يربط وجود كل شيء بوجوده سبحانه وتعالى، فلكونه موجوداً فإنه يسبغ نعمة الوجود على كل موجود، ولأننا موجودون فالله إذن موجود، لأننا لا نملك أن نُوجَدَ بأنفسنا، فلابد من موجِدٍ غيرنا وإلاّ فقدنا نعمة الوجود، فيقول: «وحيث إنك موجود فكل شيء موجود إذاً»(٢٤)؛ لأن «الوجود» لا عدم معه، ولا عدم قبله، ولا عدم بعده، إلا عدماً اعتبارياً، لا يثبت أمام قوة

الوجود وسعته وهيمنته. وهو تعالى قيوم على كل وجود، وبهذه القيومية ثبت وجود كل موجود، ولولا هذه القيومية لتلاشى كل شيء وسقط في دائرة «اللاّوجود» الاعتباري.

والإنسان رغم قواه العقلية الخارقة،ورغم انطوائه على طاقات هائلة، تفجر بعضها ولا يزال بعضها ينتظر التفجير، ورغم قدراته العظيمة في بناء الأفكار والحضارات وإنشاء المدنيات، إلاّ أنّ إحساسه بالضعف والعجز والافتقار شيء معلوم منه، ومشاهد فيه. ففي الإنسان تلتقي الأضداد، فهو قوي ضعيف، وغني فقير ، وقادر عاجز، وعالم جاهل، يصرعه الميكروب، ويخيفه المرض، ويرعبه الموت.. يغرق في همّ، ويذوب في وهْم، ويتيه في أمل، ويهيم في حلم، يسحقه اليأس، ويحطمه الألم، ويقضي عليه الحزن، إذا جاع صارت كسرة خبزٍ أعظم همّه، وإذا عطش فقطرة ماء أجلّ مراده. فكله دعاء وتضرع وتطلع إلى ما يجبر كسره، ويكمل نقصه، ويفني فقره، وينهضُ عجزه ، سواء بلسان الحال أو المقال. فهو في عبادة دائمة سواء قصدها أو لم يقصدها، لأن الدعاء مخ العبادة كما ورد في الحديث الشريف (٢٥) . وإن أعظم ما يتضرع به إلى مولاه هو طلب الخلود والبقاء، حتى «إن سبباً من أسباب وجود عالم البقاء والجنة الخالدة هو الرغبة الملحة للبقاء المغروزة في فطرة الإنسان، والدعاء العام الشامل الذي يسأله بشدة للخلود» (٢٦) وهو يرى - أي النورسي - «إنّ ردّ هذا الدعاء للخلود محال قطعاً، لأن عدم استجابته

جلّ وعلا ينافي حكمته الخالدة، وعدالته الكاملة، ورحمته الواسعة، وقدرته المطلقة »[٢٧].

ويقول كذلك : «إنّ الإيمان يعلمني بأنني مرشح لدنيا أخرى أبدية، وأني مؤهل لمملكة باقية وسعادة دائمة»[٢٨].

(١٣)

وليس هذا فحسب ما يمكن أن يفعله «الإيمان» لصاحبه، بل هو ـ أي الإيمان ـ يطلق «الإنسان» من أسر الزمان والمكان، ويضع عنه قيود الدنيا وأغلالها، ويمنحه سعةً يسع بها الكائنات، ويعطيه أمداءً نحو الآزال والآباد، فيغدو عمره عمر العالم، وحاضره بحرا تصبّ فيه أنهار الأزمنة، ماضيها ومستقبلها، فيصبح بذلك إنساناً كونياً، داره الكون كله، وحديقته العالم جميعه، وموضع نظره البشرية بأسرها، يريد لها ما يريد لنفسه من هذا السمّو الذي سما إليه، وهذا الارتقاء الذي ارتقى نحوه، فهذه هي رسالة « الإيمان » ورسالة المؤمنين، يسعون للأخذ بيد الإنسان إلى حقيقة إنسانيته، وجوهر بشريته، وسرّ وجوده المرشح للبقاء، والمرصود للخلود. و«النورسي» يحدثنا عن هذه المعاني فيقول:

«حتى كأنّ ـ الإنسان ـ المؤمن له عمر معنوي يمتد من أول الدنيا إلى آخرها، يستمد ذلك العمر عن نور حياةٍ ممتدة من الأزل إلى الأبد، وحتى أن الإنسان بسرّ تنوير الإيمان لجهاته، يخرج عن ضيق الزمان الحاضر والمكان الضيق، إلى ساحة وُسْعةِ العالم، ويصير

العالم كبيته، والماضي والمستقبل زماناً حاضراً لروحه وقلبه»[٢٩].

وإشكالية «الإيجاد» التي حار في تفسيرها العلماء والفلاسفة الماديون محلولة عند «النورسي»، فهو يرى أن الموجودات لا تأتي من «العدم المطلق» الذي لا وجود له أصلاً ولا يملك شيئاً من عناصر الوجود وخاماته الأولى، فالموجودات لها وجود في علم الله تعالى، فإيجادها هو انتقالها من الوجود العلمي إلى الوجود الخارجي، وبسرّ هذا الإسناد إلى علم الله الواحد الأحد، لا يشكل أمر الإيجاد - علما أنه لا شيء يشكل على الله تعالى - ويصبح مفهوماً لا يحتاج فهمه إلى كثير عناء. وقد عبّر «النورسي» عن هذا بقوله:

«وبسرّ أنّ في إسناد كلّ الأشياء إلى الواحد الأحد لا يكون الإيجاد من العدم المطلق، بل يكون الإيجاد عين نقل الموجود العلمي إلى الوجود الخارجي، كنقل الصورة المتمثلة في المرآة إلى الصحيفة الفوتوغرافية لتثبيت وجود خارجي لها بكمال السهولة، أو إظهار الخط المكتوب بمداد لا يُرى، بواسطة مادّة مظهرَةٍ للكتابة المستورة»[٣٠].

(١٤)

إنما نحن البشر أصداف مقفلة على ماهية نورانية متجوهرة من سنَى أنوار الأسماء الإلهية الحسنى المنعكسة على مرآة ذواتنا، فحبّ الذات إلى حد العشق، والانطواء عليها، واحتضانها، والحنو عليها، ومدافعة الضوء عنها. والخوف عليها من العطب، هذا الأمر المشهود

عند كل إنسان، إنما هو عشق لهذه الماهية النفيسة لا لذاتها، بل لما تتضامّ عليه من جوهرة الوجود الغالية التي لا تقدر بثمن . تماماً ـ ولا مشاحة في المثال ـ كما يتعلق الجواهري بالصندوق الذي يحتفظ فيه بمجوهراته، وربما هلك دون من يريد المساس به أو استلابه منه.

ومن هذا السرّ صار حبّ الذات مشروعاً إلى حدّ ما، بشرط ألاّ ينقلب هذا الحبّ إلى ما يشبه العبادة، وبشرط المعرفة مسبقاً بدواعي هذا الحبّ وأسبابه، وكونه نوعاً من الشكر لله على إنعامه عليه بنعمة هذه الماهية النفيسة التي هي موضع سرّ الله ، وموضع تجلياته سبحانه، والآن لنترك «النورسي» يخوض غمار هذا المعنى الجليل الذي لا أشك أنه فتح رباني لم يسبق إليه ـ حسب علمي ـ أحد قبله:

«وما في شخصي من صفة إلا وهي من شعاع اسم من أسمائه الباقية، فزوال تلك الصفة وفناؤها، ليس إعداما لها؛ لأنها موجودة في دائرة العلم، وباقية ومشهودة لخالقها.

وكذا حسبي من البقاء ولذته علمي وإذعاني وشعوري وإيماني بأنه إلـهي الباقي المتمثل شعاع اسمه «الباقي» في مرآة ماهيتي، وما حقيقة ماهيتي إلا ظلّ لذلك الاسم، فبسرّ تمثله في مرآة حقيقتي صارت نفس حقيقتي محبوبة ، لا لذاتها بل بسرّ ما فيها، وبقاء ما تمثل فيها أنواع بقاءٍ لها» (٣١) ثم يمضي قائلاً: «وكذا حسبي مَنْ جعلني مظهراً جامعاً لتجليات أسمائه، وأنعم عليّ بنعمة لا تسعها الكائنات. . .

يعني أن الماهية الإنسانية مظهر جامع لجميع تجليات الأسماء المتجلية في جميع الكائنات»[٣٢].

(١٥)

والحياة قيمة الوجود وروحه وخلاصته، مهما كانت درجة هذه الحياة ومرتبتها من مراتب دائرة الحياة الكبرى التي يتوسط الإنسان نقطة المركز فيها. وكل حياة إنما هي ظلّ من ظلال اسمه تعالى «الحي» ونور من أنوار تجليه على الموجودات.

وحياة الإنسان هي أعمق حياة وأوسعها وأعظمها عنفوانا، وأشدّها تماسكاً وقوةً بين الحيوات الأخرى على هذه الأرض. ومع ذلك فإنها في حنين دائم وشوق مستمر إلى حياة فوق حياتها، ووجود أرسخ من وجودها، وهى تنبئ عن إحساس ممضٍ من أنها لم تبلغ منتهى ما في مكنتها أن تبلغه من مراقي الحياة ، ولم ترق إلى أعلى ما في قدرتها أن تصله من قمم الوجود. وهي تشعر بأنها مهيأة للانقلاب نحو حياة أخرى هي أعمق وأوسع وأرقى مما هي عليه في هذه الدنيا.

وهذه الحياة التي يطمح إليها الإنسان، ويتطلع للتحقق بها، ويجد في نفسه اندفاعاً إليها، وإيماءً نحوها، هي الحياة الحقيقية التي دونها كل حياة، وهي حياة الآخرة التي تزيد ولا تنقص، وتتسع ولا تضيق، وتقوى ولا تضعف، وترقى ولا تنزل، وتعلو ولا تسفل، وتعرف ولا تجهل، وتحب ولا تكره، وهي في شوق دائم لله بارئ

الحياة، وكلما ازداد شوقها إزدادت معرفتها، وكلما إزدادت معرفتها ازدادت ارتقاؤها، وكلما ازداد ارتقاؤها ازداد استشرافها، وكلما ازداد استشرافها ازدادت سعتها، وكلما ازدادت سعتها ازدادت فهماً، وعمقت إدراكاً، وشفّتْ بصيرةً، ورهفت حسّا، وعلَتْ ذوقاً، وشَرُفَتْ معدناً، وصارت أكثر أهليةً للأبدية، وأعلى استعداداً للخلود، الذي وُعِدَ به المؤمنون.

وحين تخفت «الحياة» وتذوب في بوتقة «الموت»، فإنها تذوب لتصاغ من جديد كما يصاغ المعدن المذاب في الشكل المراد، لأن صورة «الوجود» قائمة في روح الإنسان لا تبرحه أبداً، كما أن حبّ الحياة منقوش على الماهية الإنسانية، فلا يستطيع سلطان الموت أن يمحوه أو يطمس عليه، فنازع الحياة في جوهر الإنسان له الغلبة على نوازع الموت، ومحبة البقاء العميقة الغور فيه غالبة لا محالة على عوامل الزوال والفناء، وعناد «الحياة» وإباؤها واستعصاؤها على عوامل الموت، تشتعل من جديد عندما يوضع الإنسان في قبره لكي يعي سؤال الملكين ويحسن الإجابة عليه.

وهكذا فما تكاد شعلة الحياة تخفت هنا حتى تشتعل هناك، ولا يكاد الموت يقدم حتى تأتي الحياة على إثره، ومتى نفْنا من جهة أتانا الوجود من جهات أخرى. وحين نُنْسَى ولم يعد يذكرنا أحد في عالم الشهادة فإننا نظلّ مذكورين على لسان الغيب.

يقول «النورسي»: «نعم! فما دامت «الحياة» هي حكمة خلق

الكائنات، وأهم نتيجتها وخميرتها، فلا تنحصر تلك الحقيقة السامية في هذه الحياة الدنيا الفانية القصيرة الناقصة المؤلمة، بل إنّ غاية شجرة الحياة ونتيجتها وثمرتها، ما هي إلا الحياة الأبدية والآخرة. والحياة الحية بحجرها وترابها وشجرها في دار السعادة الخالدة»[٣٣].

(١٦)

ما يكاد الرسّام الحاذق ينتهي من آخر لمسة فرشاةٍ في صورته حتى يحسّ تجاهها بمزيج من الحب والاعجاب والانجذاب، ويتتابه شعور القادر على الخلق من «العدم» والإيجاد من «اللاّوجود»، رغم أن الصورة كانت موجودة في خياله ووجدانه قبل أول ضربة فرشاة. وإنه ليبهره جمال خلقه، وآيات صنعه، ويشعر وكأنها ـ أي الصورة ـ جزءٌ لا يتجزأ من نفسه ووجدانه، وأنها مُذَابُ روحه، وعصارة حسّه وشعوره، ويودُّ لو تبعث فيها الحياة ليناغيها ويبادلها الأحاديث، ويبثها ما يجد في نفسه من المحبة لها، والإعجاب بها.

ولو أُوتيتْ الصورة نفسها حسّاً وشعوراً لرَنَتْ إلى رسامها رُنُوَّ الوامق المحب، ولنظرت إليه نظر الشاكر الممتَنّ، ولو أوتيتْ لساناً لظلّتْ تُسَبِّحُ بحمده ما وسعها التسبيح والتحميد، لأنه موجدها وخالقها، فهي مدينةٌ له بهذا الخلق والإيجاد.

فبين الرسّام ولوحته، وبين أي صانع وصنعته علاقة حبّ متبادلة، وإعجاب وامتنان متبادلين، فكل رسّام يحب ما يرسم ، وكل صانع يحب ما يصنع.

فالخلق إذن في جوهره حبٌّ مفاضٌ، والوجود في حقيقته عشق مصور، وحنين مجسم . وحبُّهُ تعالى لخلقه وموجوداته ملأ العالم بالكائنات والموجـودات، وبالإنسان الذي هو قمة هذه الكائنات والموجودات، فكيف يفني الخالق خلقه الذي أحبّه، ويذهب بالوجود إلى العدم الذي أخرجه منه، وكيف تنقلب محبته بغضاً ورحمته عذاباً، وكيف يُتَصَوَّرُ عقلاً أنه ـ جلّ شأنه ـ يهدم ما بناه بيديه، ويفكك وجود ما أوجده بقدرته، ويلقي بالإنسان الذي صنعه إلى يَمٍّ الفناء. . .؟! هذا لا يُتَصَورُ أبداً، لأنه تعالى لا يرضى للإنسان الذي اصطفاه لمعرفته ومحبته أن يزول وينعدم بينما سبب الإنعام عليه بالوجود ـ وهو المحبة والمعرفة ـ ما زال قائماً لا يزول ولا يحولُ. فكيف يتصور انعدام المعلول ـ وهو الإنسان ـ مع وجود العلة ـ اي دواعي المحبة والمعرفة ـ التي لا يمكن ان تنتهي عند حـد، بل تمضي في الارتقاء والسمّو طوراً بعد طور إلى ما لا نهاية، لأن محبة الله الأبدي أبدية، ومعرفته سرمدية، فلابدّ للإنسان من الخلود والدوام لكي يظلّ دائرةً في فلك هذه المحبة والمعرفة اللتين تندّان عن محدوديات الزمان والمكان ، وتظلان دائمتين بدوام المحبوب والمعروف، و«النورسي» يشير إلى هذا قائلاً: «وهل يقبل العقل ـ بوجه من الأوجه ـ أن القدير الحكيم ذا الرحمة الواسعة، وذا المحبة الفائقة، وذا الرأفة الشاملة، والذي يحب صنعته كثيراً، ويحبّب نفسه بها إلى مخلوقاته، وهو أشدّ حباً لمن يحبونه. . . فهل يعقل أن

يفني حياة من هو أكثر حباً له، وهو المحبوب وأهل للمحبة والذي يعبد خالقه فطرةً ؟! ويفني كذلك لبّ الحياة وجوهرها وهو الروح، بالموت الأبدي، ويسبب جفوة بينه وبين محبّه ومحبوبه، ويؤلمه أشدّ الإيلام، فيجعل سرّ رحمته ونور محبته معرضاً للإنكار ؟! حاش لله ألف مرة حاش لله»(٣٤).

فالإنسان بمعناه الرفيع المخلوق في أحسن تقويم، مخلوق ليكون مرآة الجمال الإلهي الأقدس، ومرآة رحمته ولطفه، وموضع تجليات أنوار أعظم أسمائه: « الخالق، البارئ، المصور». فهل يُقْبَلُ عقلاً أن الجمال يمكن أن يكسر المرآة التي يبصر بها جماله، أو يمحو من الوجود من جعله مثال تجليات أسمائه الحسنى، أو يحطم مجسم رحمته، أو ينهال بمعاول الإعدام على تمثال إبداعه، أو يمضي عابثاً ـ حاشاه ـ بأنامل قدرته ليمزق بدداً الصورة التي أمعن في إبداعها، وأتقن في صنعها؟! هذا ما لا يمكن أن يقول به عاقل، وإن كان الله تعالى لا يُعْزَمُ عليه فهو يفعل ما يشاء جلّ شأنه، ولكن عادته وسنته جرت بعدم إعدام من جعله موضع نظره، وآية قدرته، ومعجزة خلقه، والذي خلق له الكون وسخره لخدمته، وجعل نظره في الدلالة عليه والإشارة إليه.

فلا تتوهم ـ أيها الإنسان ـ «أنك ماضٍ إلى الفناء والعدم، والعبث والظلمات، والنسيان والتفسخ والتحطم والانهشام، والغرق في الكثرة والانعدام، بل أنت ذاهب إلى البقاء لا إلى الفناء، وأنت

مسوق إلى الوجود الدائم لا إلى العدم، وأنت ماضٍ إلى عالم النور لا إلى الظلمات، وأنت سائر نحو مولاك ومالكك الحق، وأنت عائد إلى مقر سلطان الكون. . . سلطان الوجود. سترتاح وتنشرح في ميدان التوحيد دون الغرق في الكثرة أبداً ، فأنت متوجه إلى اللقاء والوصال دون البعاد والفراق»[٣٥].

(١٧)

لقد اختار الخلود الإنسان مسكناً له رضي بذلك أم لم يرض، واختارت الأبدية روحه مستقراً لها عرف ذلك أو لم يعرف، وما في فطرته من حنين إلى «اللاّمحدود» في الزمان والمكان إنما هو من فيض ذلك الروح المسكون بالأبدية. وكلما التأمتْ النفس واستجمعت ما تشتت منها في عالم الكثرة واتحدت وتوحدت صارت قادرةً على رؤية التماعات من هذه الحقيقة في آفاق ماهيتها الإنسانية، وصارت أقدر على الإدراك العالي، والفهم الواعي لما تقوله الفطرة ويوحي به الغيب.

وهكذا يستطيع الإنسان أن يعي معنى كونه جزءاً من نظام إلـهي يندرج فيه الإنسان والكون وما وراء الكون في وحدة واحدة هي إشارة إلى واحدية الأحد الفرد الصمد الذي خلق الإنسان لمعرفته ومحبته ولن يرضى له غير الوجود حالاً ومآلاً.

ففي مخزون الإنسان نوازع مقاومة لكل ما يمتّ بصلة إلى الفناء والزوال، وعوامل تشبث مُلحٍّ بالحياة والبقاء مهما كانت هذه الحياة،

ومهما كان شكل هذا البقاء! حتى لينقلب أحياناً إلى نوع من الحرص المقزز المشين كما يشير القرآن الكريم في وصفه لليهود بأنهم أحرص الناس على «حياة» هكذا بالتنكير! وحين تحداهم بأن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين في دعواهم بأنهم أحباب الله وخلصاؤه لم يفعلوا ولن يفعلوا؛ لأن شجاعة الإيمان كانت قد اختفت من أرواحهم منذ زمن سحيق بتمردهم وعصيانهم وقتلهم للأنبياء عليهم السلام. . . وعلى العكس من ذلك مخاطبة خالد بن الوليد رضي الله عنه لجنده: «اطلبوا الموت توهبْ لكم الحياة» الدنيوية والأخروية معاً.

والإنسان الذي شَرُفَ وارتقى بالخطاب الإلهي: «كنْ» لا يمكن أن يكون مثابة للعدم. فهو محصن ضده بـ «كنْ» الإلهية التي بعثته إلى الحياة، وقلدته الوجود.

فالوجود ـ للجاحد ـ ولو في جهنم خير له وأكثر رحمةً من أن يُذْهَبَ به إلى العدم، فالوجود رحمة أينما كان وفي أي ظرف من الظروف، بينما العدم أشدّ عذاباً من كل عذاب، فلا مناص للإنسان ـ مؤمناً أو جاحداً ـ من «كنْ» الوجود أينما ذهب وحطّ رحاله.

فتمني الكافر «ألاّ يكون» للخلاص من العذاب هو سقوط في عذاب أكبر وأشدّ، ورغبته بالانسلاخ من موجوديته رغبة مخنوقة لا سبيل لها للتحقق، ولا مناص له من تحمل مسؤوليته عن أخطائه وخطاياها بإنكاره للحياة الآخرة التي هي جوهر كل إيمان على هذه الأرض. . . وكأنّ «النورسي» يريد أن يعزي هذا الإنسان ويقول له:

إن وجودك في جهنم خير من عدم وجودك مطلقاً، فيخاطبه قائلاً:

«فيا غارقاً في الضلالة ــ وليس بمستطيع الخروج منها ــ إنّ وجود جهنم لهو أفضل لك من العدم الأبدي؛ إذ في وجودها نوع من الرحمة حتى للكفار أنفسهم . . . نعم إنّ جهنم دار وجود تؤدي مهمة السجن بحكمة الحكيم الجليل وعدالته، وهي موضع مرعب ومهيب ضمن دائرة الوجود الذي هو الخير المحض»(٣٦).

(١٨)

فالإنسان مصبّ الفعالية الإلهية، والفعالية الإلهية بل «إنّ كل نوع من أنواع الفعالية ـ جزئياً كان أو كلياً ـ يورث لذةً، بل إنّ في كل فعالية لذةً، بل الفعالية نفسها هي عين اللذة، بل الفعالية هي تظاهر الوجود الذي هو عين اللذة، وهو انتفاضة بالتباعد عن العدم الذي هو عين الألم»(٣٧).

فالعدم ألم أكبر من كل ألم، وبمفهوم المخالفة فإن الوجود فرح، والإيجاد بالضرورة فرح كذلك و «حيث إن صاحب كلّ قابلية يرقب بلهفة ولذة ما ينكشف عن قابلياته بفعالية ما، وإن تظاهر كل استعداد بفعالية إنما هو ناشئ من لذة مثلما يولّد لذة، وإن صاحب كل كمال أيضاً يتابع بلهفة ولذة تظاهر كمالاته بالفعالية. فإذا كان في كل فعالية لذة كامنة مطلوبة كهذه، وكمال محبوب كهذا، والفعالية نفسها كمال، وتشاهد في عالم الأحياء تجليات أزلية لرحمة واسعة ومحبة لا نهاية لها نابعة من حياة سرمدية. . . فلا شك أن تلك التجليات تدل

على:

أن الذي يحبب نفسه إلى مخلوقاته، ويحببهم ويرحمهم بإسباغ نعمه وألطافه عليهم على هذه الصورة المطلقة، تقتضي حياته السرمدية عشقاً مطلقاً (لاهوتياً إذا جاز التعبير) ومحبة مقدسة مطلقة ولذة منزهة سامية . . . وأمثالها من الشؤون الإلهية المقدسة اللائقة بقدسيته والمناسبة لوجوب وجوده. فتلك الشؤون الإلهية بمثل هذه الفعالية التي لا حدّ لها ، وبمثل هذه الخلاّقية التي لا نهاية لها، تجدد العالم وتبدله وتمخضه مخضاً»[٣٨].

«فجميع آيات الشكر والحمد والرضى المنطلقة من جميع المخلوقات قاطبة والمنبعثة من سرورهم وفرحهم وابتهاجهم بالنعم والآلاء العميمة عليهم والمتوجهة كلها إلى الحي القيوم تولّد من الشؤون الإلـهية المقدسة التي تقتضي هذه الفعالية الدائمة والخلاقية المستمرة، تلك الشؤون التي يعجز القلم عن التعبير عنها ولم يؤذن لنا بالإفصاح عنها، بل ربما يشار إليها بأسماء: «الرضى المقدس» و«الافتخار المقدس» و «اللذة المقدسة» وما شابهها من الأسماء التي نعبر بها ـ نحن البشر ـ عن معاني الربوبية المنزهة»[٣٩].

«ثم إن الإنسان الذي يملك مشاعر دقيقة جداً وكثيرة جداً ـ وقد لا تنكشف ضمن حياته إلا عندما يحفّز أو يثار ـ فتظهر تلك المشاعر بأشكال متنوعة وانفعالات مختلفة فإنه بوساطة هذه المشاعر الدقيقة والمعاني العميقة يؤدي مهمة عرض الشؤون الذاتية «للحي القيوم»

فمثلاً: الحب والافتخار والرضى والانشراح والسرور وما شابهها من المعاني التي تتفجر لدى الإنسان في ظروف خاصة، يؤدي الإنسان بها مهمة الإشارة إلى هذه الأنواع من الشؤون الإلهية بما يناسب قدسية الذات الأزلية وغناه المطلق وبما يليق به سبحانه وتعالى» (٤٠).

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده الآبق، وإنابته إليه، والرجوع إلى طاعته، كما ورد في الحديث الشريف (٤١). فإنه لا شك قد فرح بخلقه وصنعه وجعله مرآةً لشؤونه الإلهية فرحاً ليس كمثله فرح مما يعرفه البشر، بل فرحاً يليق بذاته الأقدس، فكيف يتصور والأمر كذلك أن الله تعالى يعدم من فرح بصنعه وباهى به ملائكته وأسجدهم له، ورصده لتجليات أسمائه الحسنى، «فالفناء والزوال والعدم، مسائل تعبر عن عناوين لأنواع مختلفة من الوجود، وتثمر كثيراً من أنماطه، وإن الشيء الآيل للزوال يترك وراءه أضراباً كثيرة من الوجود، وإن موت ذي حياة وزواله يثمر وجودات كثيرات، ويتركها وراءه ثم يذهب، نعم... إن الشيء الفاني يظل باقياً من جهات متعددة، فالحبة تموت بالبلى والتعفن، ولكنها تترك مكانها سنبلة جامعة لمائة حبة، وهكذا وبناءً على هذا السر فإن الخوف من الموت والعدم والتأسف على الزوال ليس أمراً في موضعه» (٤٢) إذا ما عرفت حقيقته.

(١٩)

لقد عالج «النورسي» مسألة «خلود الإنسان» كما لم نطلع على أحد عالجها مثله، فالذين قرأنا لهم من كتّاب هذا العصر، مروا بالمسألة مروراً سريعاً كمنْ يخاف الخوض فيها، وشغلوا عقولهم بمعالجة قضايا هي بالتأكيد أقل أهمية منها. علماً أن أية قضية دونها لا تصح إلا إذا صحت مقدمتها وأساسها الذي تقوم عليه ألا وهو «خلود الإنسان».

فخلود الإنسان في الآخرة هو أس الأساس في الإيمان، وما لم يتحول هذا الإيمان إلى إيمان تصديقي مُبَرْهَنٍ عليه يظلّ ناقصاً ومعرضاً للتشكك من قبل ضعاف الإيمان فضلاً عن غير المؤمنين أصلاً. وإذا كانت قضايا العصور وإشكالاتها تنتظر رجلها المميز الذي ينجم فيها ليحلّ عقدها، ويزيل إشكالاتها. فقد اختار هذا العصر الدنيوي الجحود «النورسي» لكبرى قضاياه وهي قضية الإنسان وخلوده التي كادت تختفي في زخم ما يخوض فيه من إشكالات الدنيا ومتاعبها وتعقيداتها فقد شمر عن ساعد الجد وكرّس جهده ليشق طريق الآخرة المندرسة ويمهدها ويزينها للراغبين بالسير عليها، واستطاع برسائله ان يدير وجه الإنسان إلى آخرته. بعد أن كان بريق الدنيا قد أخذ ببصره. وعلمه كيف يلتفت إلى آخرته التي إليها معاده وصيرورته عاجلاً أم آجلاً. ولا يشك أحد في أن الرجل قد ملأ فراغاً كبيراً

كانت تشكو منه المكتبة الإسلامية الفتية حين جعل من «خلود الإنسان» منطلقاً لكل معالجاته الإيمانية والإسلامية.

***

أديب إبراهيم الدباغ

الهــوامــش

(١) الكلمات ٦١١ .

(٢) الكلمات ٦١١ .

(٣) الكلمات ٨٠ .

(٤) الكلمات ٨٠ .

(٥) الكلمات ٨١ .

(٦) الكلمات ٩٥ .

(٧) الكلمات ٦١٧ .

(٨) انظر: «الكلمات» ١٨٩ .

(٩) الكلمات ٧٢ .

(١٠) الكلمات ٦١٦ .

(١١) الكلمات ١٨٣ .

(١٢) الكلمات ٦٢١ .

(١٣) إشارات الإعجاز ٢٧ .

(١٤) إشارات الإعجاز ٢٢٢ .

(١٥) إشارات الإعجاز ٢٢٧ .

(١٦) إشارات الإعجاز ٢٣٣ .

(١٧) إشارات الإعجاز ٢٣٥ .

(١٨) إشارات الإعجاز ٢١٧ .

(١٩) قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ ﴾ معناه : قد أتى، و ﴿ هَلْ ﴾ تكون أيضاً بمعنى «ما » أى : ما أتى. مختار الصحاح.

(٢٠) المكتوبات ٧٥.
(٢١) مسلم [٤٨٢/ ٢١٥] .
(٢٢) المكتوبات ٢٩٧.
(٢٣) اللمعات ٣٨٧.
(٢٤) اللمعات ٢٢.
(٢٥) الترمذى [٣٣٧١] وضعفه .
(٢٦ ، ٢٧) اللمعات٢٣.
(٢٨) اللمعات ٣٨٩.
(٢٩) اللمعات ٤٦٧.
(٣٠) اللمعات ٤٧٤-٤٧٥.
(٣١) اللمعات ٥٠٣.
(٣٢) اللمعات ٥٠٩.
(٣٣) اللمعات ٥٦٤.
(٣٤) اللمعات ٥٦٥.
(٣٥) المكتوبات ٢٩٧.
(٣٦) الشعاعات ٢٨٧.
(٣٧، ٣٨) اللمعات ٥٨٥.
(٣٩) اللمعات ٥٨٧.
(٤٠) اللمعات ٥٩٦.
(٤١) البخارى [٦٣٠٨]، ومسلم [٢٦٧٥/١ ـ ٨] .
(٤٢) اللمعات ٥٠٤- الهامش الأول.

* * *

الفهرس

رقم الإيداع: ١٦٣٢٥/ ١٩٩٩م
I.S.B.N:977-552-931-X

هذا الكتاب

* هذا الكتاب يتحدث عن فجر المسلم المنتظر . . .

المسلم الذى سيُبعث فى التاريخ لينقذ سفينة الحضارة الإنسانية بعد أن أوشكت على الغرق بقيادة القائد الأعور : المسيح الدجال !!

* الدجال الذى لا يرى إلا بعين المادة والمصلحة والعنصرية . . والذى فقد الرؤية للروح والأخلاق والعقل الصحيح والوحى الصحيح والإنسانية ذات الرسالة .

* لقد تَعِبَتْ الإنسانيةُ ، وشاخت ـ بسرعةٍ ـ على يد الحضارة المادية ، وانحدرت إلى مستوى لم تنحدر إليه الحيوانات ، وغَلَّفَتْ ذلك بفلسفات عقلية ، وحمت الرذائل وأنواع السقوط بمؤتمرات « حقوق الإنسان » الحيوانى!!

* وبالتالى لابد أن يبزغ فجر المسلم المنتظر الذى يقتلع أعشاب الإلحاد والنفاق ، ويبذر بذور الإيمان .

* ومن ثم هذا المسلم سوف تنطلق كلمة الحق القرآنى قوية مجلجلة تهز أر[illegible] الباطل وعروشه . . . وكما انبعث نور الإيمان على يد بسطاء من أمثال «ب[illegible] وسلمان ومصعب وربعىّ » فكذلك سيظهر بسطاء لهم رؤية معرفية إيمانية مس[illegible] من القرآن ، ولهم منهج فى إصلاح الحضارة ورؤية فى خلود الإنسان، و[illegible] عظمته ؛ لأنه المرآة التى تتجلى فيها الأسماء الحسنى !!.

* ويسر « سوزلر » و « الصحوة » تقديم هذا الكتاب للقارئ المسلم.

د/ عبد الحليم عو[illegible]

شركة سوزلر للنشر ـ القاهرة

١٠ش يوسف عباس ـ مدينة التوفيق ـ مدي[illegible]

ت: ٢٦٣٦٦٨٤(٢٠٢) ٠٠



دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ ا[illegible]

مدينة الهدى ـــ حدائق حلوان ـــ ال[illegible]

ت:٣٦٩٠٠٧١



